حُسَام الدِّين لُؤْلُؤ وَدَورُهُ فِي حَرَكَةِ الجِهادِ الإسِّلامي ضِد الصَلِيبِيين (ت٥٩٨هـ/١٢٠٢م)

دكتور
ياسر كامل محمود أحمد
مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب – جامعة الوادي الجديد

ملخص البحث

يَحفَل تاريخ البَحرِيّة الإسّلامية المصّرية بقادةٍ وأبطالٍ عُظَماء كان لهم نصيب وافر في صُنع أحداث التاريخ، ومن هؤلاء الأبطال، القائد البحري حُسَام الدِّين لُؤلُؤ، والذي كان له دور مُهِم في صُنع أحداث عصر الحروب الصليبية مع قادةٍ بارزين غيره. وتهدف الدراسة إلى محاولة البحث في سيرة هذا القائد البحري، وتفسير أسباب إهمال المصادر المعاصرة له، والكشف عن مُنجزاته العسكرية، وتوضيح دوره في حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، ورأي مؤرخي عصره فيه، وأهم المُنشئات التي بناها، ثم أخيرًا وفاته.

الكلمات المفتاحية: حسام الدين لؤلؤ – الجهاد الإسلامي – الصراع الصليبي–الإسلامي– الحروب الصليبية.

Husam Al-Din Lu'lu' and his role in the Islamic Jihad movement against the Crusaders

Abstract:

The history of the Egyptian Islamic Navy is full of great leaders and heroes who had an ample share in making the events of history, and among these heroes, the naval commander Hussam al-Din Lu'lu', who had an important role in making the events of the era of the Crusades along with other prominent leaders. The study aims to try to research the biography of this naval commander, explain the reasons for neglecting contemporary sources for him, reveal his military achievements, clarify his role in the Islamic Jihad movement against the Crusaders, and the opinion of historians of his time in him, his most important establishments, and then his death.

Keywords: Husam al-Din Lu'lu' - The Islamic Jihad - Crusader-Islamic conflict – Crusade

يُعَدُ الحَاجِب حُسَام الدِّين لُؤْلُؤ واحدًا من أهم قادة الأُسطول المصري الإسلامي خلال العصر الأيوبي بصفة عامة، وعهد السلطان صلاح الدين الأيوبي بصفة خاصة. ورغم أنه كان بطلًا من أبطال حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، وكانت له صَوَلات وجَوَلات في ميادين الجهاد في البحرين الأبيض المتوسِّط (بحر الروم)، والأحمر (بحر القُلزُم)، فإنه لم يُعثَر له على ترجمة وافية عند معاصريه تَفيه حَقَّه حسبما ذكر أحمد أحمد بدوي[١] في المقال الذي كتبه عنه سنة ١٩٤٨م. وهو المقال الوحيد الذي ألقى الضوء على شخصية هذا البطل الفذ. غير أنه مقال أشبه بالمقالات الصحفية التي لا تستند إلى توثيق مرجعي. وبخلاف هذا المقال، لم يقف الباحث على أية دراسات عربية ولا أجنبية تناولت سيرة الحاجب حسام الدين لؤلؤ، ودوره الجهادي ضد الصليبيين، ومن هنا عَزَمَ الباحث تسليط الضوء على هذه الشخصية العسكرية الإسلامية؛ لرد الاعتبار لها، وإبراز دورها في حركة الجهاد الإسلامي.

وواقع الأمر؛ أن الباحث صادف مشكلة تتعلق بندرة المادة المصدرية التي تناولت حياة حسام الدين لؤلؤ، وخاصة الباكرة منها، فلا نكاد نجد مادة علمية عن مولده، ولا عن نشأته، ولا حياته إلا النذر اليسير. والسبب في ذلك يرجع بطبيعة الحال إلى إغفال كثير من كبار المؤرخين المعاصرين الترجمة لهذا الجهادي الكبير. فلا نجد له ترجمة عند المؤرخ ابن الأثير الجزري، ولا عند ابن شداد، ولا ابن خِلِّكان، ولا عند غيرهم من مؤرخي عصر الحروب الصليبية، ومؤرخي الطبقات والأنساب والوفيات، وهم الذين ترجموا لشخصيات إسلامية أقل شأنًا من الحاجب لؤلؤ. فالمؤرخ ابن الأثير الذي اعتاد أن يختم فصوله بذكر وفيات أعيان السنة التي بصدد التأريخ لها، فاته أن يقدم ترجمة لهذا البطل، بل حتى لم يُشر إلى سنة وفاته!، في الوقت الذي ترجم فيه ابن الأثير لشخصيات غير بارزة[٢]، وهو أمر مُحيِّر، يفتح باب التساؤلات حول سبب اغفال هذا المؤرخ للحاجب لؤلؤ، فلا نعلم هل كان هذا تجاهلًا مقصودًا من المؤرخ ابن الأثير، على اعتبار أن حسام الدين لؤلؤ كان واحدًا من المُقربين لصلاح الدين الأيوبي، أم أن الترجمة لهذا البطل قد سقطت سهوًا منه ؟!. وقد يَتَفهّم الباحث اغفال ابن الأثير لسيرة هذا البطل، باعتباره –كما سبق القول– رجلًا من رجال صلاح الدين، ومن المحسوبين عليه؛ ولكن لا يتفهم الباحث اغفال ابن شداد له. صحيح أن ابن شداد جعل من السلطان صلاح الدين محور كتابه النوادر السلطانية، وأتفهم أيضًا أن كتاب النوادر السلطانية لم يكن كتاب ترجمة للطبقات والأنساب؛ ولكن أيضًا رجل بقيمة حسام الدين لؤلؤ، وما أدّاه من دور لا يُنكر في

حركة الجهاد الإسلامي، لم يكن ليغفل عنه ابن شداد. وبطبيعة الحال؛ نلتمس العذر للمؤرخ ابن خلِّكان الذي خلى كتابه الأهم والأشهر "وفيات الأعيان" من الترجمة لحسام الدين لؤلؤ، وعُذره في ذلك أنه لم يجد عند سابقيه من المؤرخين ترجمة وافية ينقلها عنهم.

كذلك فإن الترجمة التي جاءت متناثرة عن حسام الدين لؤلؤ في كتاب أبي شامة، الروضتين، وكتاب البرق الشامي للعماد الكاتب الأصفهاني، ومختصر سنا البرق الشامي للبنداري، وفي كتابيّ المقريزي، المواعظ والاعتبار المعروف بخطط المقريزي، والسلوك، وكتابيّ العبر، وسير أعلام النبلاء للذهبي, وغيرها من المصادر المعاصرة والمتأخرة، هي كلها ترجمات مُختصرة ومُكررة لا تروي ظمأ الباحث، فضلا عن كونها ترجمات تناقلها هؤلاء المؤرخون عن بعضهم البعض نصًا لا زيادة فيه. الأمر الذي زاد من صعوبة البحث.

والواقع أن ندرة المادة المصدرية على هذا النحو دفعت بالباحث إلى محاولة استنطاق المصادر المتاحة، واللجوء إلى الافتراض والتحليل، ووضع احتمالات منطقية في ضوء سياق الأحداث التاريخية.

أمّا بالنسبة للمراجع الحديثة، فمما يُوسَفُ له عدم وجود دراسة تنفرد بالتأريخ لحسام الدين لؤلؤ على أسس علمية منهجية، ولا نجد سيرته إلا في ثنايا دراسات تُؤرخ لتاريخ الحروب الصليبية والعصر الأيوبي بصفة عامة؛ لذلك رأى الباحث أن يعطي حسام الدين لؤلؤ حقه في تقديم دراسة تاريخية منهجية عنه.

هذا، ويدور البحث حول محاور رئيسة تسلط الضوء على أصل حسام الدين لؤلؤ، ومولده، والتحاقه بخدمة صلاح الدين الأيوبي، ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، ورأي مؤرخي عصره فيه، ومنشئاته، وأخيرًا وفاته. وفي النهاية أرجو أن تضيف هذه الدراسة جديدًا لحقل دراسات التاريخ الوسيط بصفة عامة، والحروب الصليبية بصفة خاصة.

اسمه وألقابه وأصله ونشأته

عُرِفَ في المصادر باسم حُسَام الدِّين لُؤْلُؤ بن عبد الله العادلي[٣]، ولُقِبَ بالحَاجِب[٤]، ولم يَرِدْ في المصادر أي إشارة إلى زمن حُصّوله على هذا اللقب، أو أسباب حُصّوله عليه، والراجح أنه حَاذَّ على هذا اللقب كنوع من التَكرِيم له. كما لُقِبَ أيضًا بالأمير[٥]. ولا يُعّلم أيضًا متى حصل عليه. والغالب أنه حمل هذا اللقب بعد تَعّيينه في وظيفة أمير البحر أو مُقَدَم الأسطول المصري. أما عن مولده، فلا نجد في المصادر أي إشارة إلى تاريخ ولادته، والأرّجح أنه من مواليد الثُلث الأول من القرن السادس الهجري/ القرن الثاني عشر الميلادي؛ وذلك استنادًا إلى إشارات مصدرية[٦] ذكرت أنه توفى سنة ٥٩٦هـ/١٢٠٠م أو سنة ٥٩٨هـ/١٢٠٢م بعد أن عَمَّر طويلًا. فلو فرضنا أن عُمره امتد ما بين السبعين والتسعين أمكننا القول أنه وُلِدَ خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

أمّا عن أصّله فقد اجمعت المصادر على أنه أرّمَنيّ الأصل[٧]، بيد أن هذه المصادر لم تذكر شيئًا عن أسرته، أو نشأته، أو بدايات عمله بالخدمة العسكرية، وجُلّ ما ذكرته المصادر عنه في هذا الشأن أنه كان ضمن غِلْمَان[٨] القصر الفاطمي، وتحديدًا ضمن غِلْمَان الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله (٥٥٥-٥٦٧هـ/١١٦٠-١١٧١م) [٩].

والمُلاحظ أن هذا أمر طبيعي. فمؤرخو العصور الوسطى لم يهتموا بالكثير من الشخصيات قبل نبوغها وعلّو شأنها؛ ورجل كحسام الدين لؤلؤ لم يكن في بداية حياته شخصية بارزة، ولا سليل أسرة ذات شأن في المجتمع؛ لذا فمن البديهي أن يغفل مؤرخو عصره عنه. وتلك كانت سمة الكُتَّاب خلال هذا العصر الذي لم يحظ فيه العَوام، وأبناء الطبقات المغمورة باهتمام المؤرخين.

على أية حال؛ فإن ما يسترعي الانتباه هنا، الأصل الأرمني لحسام الدين لؤلؤ. والواقع أن المُطالع لتاريخ الخلافة الفاطمية في مصر يلحظ كثرة الأرمن بها. ويرجع ذلك إلى انتهاج الخلافة الفاطمية لسياسة ضم عناصر أخرى غير العناصر البربرية التي كانت العماد الأساس للدولة الفاطمية، وخاصة بعد الخلاف الذي نشب بين أبي عبدالله الشيعي[١٠] والخليفة الفاطمي عُبيد الله المهدي (٢٩٧-٣٢٢هـ/ ٩٠٩-٩٣٤م)[١١]، والذي انتهى بمقتل الأول سنة ٢٩٨هـ/٩١١م. وكان الأرمن أحد هذه العناصر التي وفدت على مصر إبان الحكم الفاطمي[١٢].

وحسب سيمينوفا [١٣] فإنه منذ النصف الثاني من حكم الخليفة المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٦-١٠٩٤م) [١٤]، إزداد عدد المهاجرين الأرمن إلى أراضي الخلافة الفاطمية؛ فرارًا من العدوان البيزنطي والسلجوقي على بلادهم، وقد تزايد عدد الأرمن في الجيش الفاطمي، وشغلوا أكبر المناصب، وشاء لهم أن يلعبوا دورًا كبيرًا في الحياة المصرية بصفة عامة، والحياة السياسية والعسكرية بصفة خاصة. فصاروا يشكلون غالبية الجيش الفاطمي[١٥]. وقد بدأت سيطرتهم على المناصب الكبرى بعد أن تَقَّلد القائد الأرمني بدر الدين الجِمالي[١٦] منصب أمير الجيوش، وهو منصب رفيع يعادل حاليًا منصب وزير الدفاع، ثم أُسندت إليه الوزارة، وبذلك أصبحت له صلاحيات واسعة ليست عسكرية وحسب، وإنما أيضًا صلاحيات سياسية تخطت أحيانًا صلاحيات الخليفة الفاطمي نفسه[١٧].

وفي ضوء سياسة الدولة الفاطمية في ضم العناصر غير العربية كالأرمن وغيرهم، التحق حسام الدين لؤلؤ بخدمة الفاطميين في مصر، وأصبح من غِلْمَان الخليفة العاضد لدين الله [١٨]. أي ضمن العسكر الذين كان يُستَعان بهم في الحروب. وإن كانت المصادر لم تذكر تاريخًا مُحددًا لدخوله في خدمة الفاطميين. كما أن المصادر التي أرّخت للفترة الأخيرة من عُمر الخلافة الفاطمية لم تذكر له أيّ دور عسكري بارز طوال مدة خدمته بالقصر الفاطمي. والثابت أن لؤلؤ لم يكن في بداية حياته سوى جندي صغير من أجناد مصر الفاطمية، الأمر الذي يُفسر عدم فطنة مؤرخي مصر الفاطمية له، وقد طال صمت المصادر عنه فلم يسجلوا له أي دور عسكري ملحوظ حتى سقوط الخلافة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبي.

التحاق حسام الدين لؤلؤ بخدمة صلاح الدين الأيوبي

وصل صلاح الدين الأيوبي لمنصب الوزارة الفاطمية سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م، خلفًا لعمه الراحل أسد الدين شيركوه[١٩]. ومنذ توليه هذا المنصب، أدرك ببصيرته الثاقبة أنه لن ينجح في إدارة الدولة بفضل كفاءته، وعبقريته في السياسة والحرب فقط، وإنما أيضًا بالاعتماد على ذوي الخبرة والكفاءة من الرجال. فشرع في "بذل المال واستمال الرجال" حسب قول ابن شداد[٢٠]، والظاهر أن لؤلؤ كان ضمن الذين استمالهم صلاح الدين بعد أن خَبُرَ موهبته وكفاءته العسكرية في البحرية المصرية خلال فترة عمل صلاح الدين بالوزارة.

فخلال تلك المرحلة، عمل صلاح الدين جاهدًا على حفظ الثغور، واستعادة بعض المواني المهمة. وكان يهدف من مشروعه العسكري هذا، حماية البحر الأحمر، وتجارته،

وحجاجه، والأماكن المقدسة المُطِّلة عليه من الخطر الصليبي، فعزم سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠م على استعادة أَيْلة[٢١] الواقعة عند مدخل بحر القُلزُم (البحر الأحمر).

وكانت أَيْلة قد سقطت في أيدي الصليبيين منذ سنة ٥١٠هـ/١١١٦م ومعها جزيرة فرعون[٢٢]، واستخدم الصليبيون قلعة أيلة البرية، وقلعة جزيرة فرعون البحرية بعد إدخال بعض الترميمات والاصلاح فيهما، وجهّزوها بالرجال والعتاد، ومنذ ذلك التاريخ سيطر الصليبيون على الشريان التجاري القادم من الهند واليمن والساحل الإفريقي باتجاه العقبة، وأصبح الوجود الصليبي في أيلة مصدر إزعاج وتهديد لتجارة البحر الأحمر ومواني الحجاز، وصار لهم أسطول يتدخل في شؤون بحر القُلزُم (البحر الأحمر) التجارية والاقتصادية. وقد عبّر صلاح الدين عن هذا الخطر برسالة من إنشاء القاضي الفاضل إلى الخليفة العباسي في بغداد جاء فيها: "ومنها قلعة أيلة كان العدو قد بناها في بحر الهند، وهو المسلوك منه إلى الحرمين واليمن، وغزا ساحل الحرم، فسبى منه خلقًا، وخرق الكفر في ذلك الجانب خرقًا، وكادت القبلة أن يستولى على أصلها، ومساجد الله أن يسكنها غير أهلها"[٢٣].

لا شك أن مشروع استعادة أيلة من أيدي الصليبيين وحفظ الثغور استلزم الاعتماد على سلاح البَحّرية. لذلك أَمَرَ صلاح الدين ببناء سُفن حربية بدور الفُسطاط، ثم نُقِلَت أجزاءها مُفككة على الجِمال إلى ساحل البحر الأحمر حيث أُعيد تركيبها وشحنها بالآلات والرجال, وتم حصار القلعتين البرية والبحرية، وبعد عدة عمليات بحرية ناجحة تمكن الأسطول المصري من استعادة أيلة سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠م [٢٤]. كما أكّمَلَ الأسطول المصري مهمته فقام بحفظ الثغور المُهمة كالإسكندرية، ودمياط، ورشيد، وعَيْذَاب [٢٥].

من المُرَجَّح أن يكون حسام الدين لؤلؤ قد شارك في استعادة أيلة وحفظ الثغور البحرية، وذلك لاعتبارين. أولا: أن هذه الاستراتيجية التي تم بها استعادة أيلة من أيدي الصليبيين، والمبنية على نقل السفن مُفككة على الجِمال ثم إعادة تركيبها، هي الاستراتيجية نفسها التي نفّذها حسام الدين لؤلؤ بعد اثنتي عشر عامًا من تلك الواقعة كما سيأتي الحديث لاحقًا. وثانيًا: الراجح أن نجاح حسام الدين لؤلؤ في استعادة أيلة، كان بمثابة تقديم لأوراق اعتماده لصلاح الدين الأيوبي؛ الأمر الذي جعل صلاح الدين يُسند إليه منصب مُقَدَّم الأسطول المصري بعد أشهر قليلة من استعادة هذا الميناء المهم.

ومن خلال سياق الأحداث تلك، من المنطقي أيضًا تَصّور أن العلاقات قد توثقت أكثر بين صلاح الدين وحسام الدين لؤلؤ بعد استعادة أيلة، وحفظ ثغور مصر؛ فحاز على ثقة صلاح الدين. ومما يدعم ذلك، أن صلاح الدين استثنى حسام الدين لؤلؤ من سياسة الاقصاء التي اتبعها مع الأمراء الفاطميين، والعُرّبان، والأرمن، والعبيد السود، بعد اسقاطه الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م [٢٦]. ولم يقف الأمر عند حد الاستثناء من سياسة الاقصاء تلك؛ بل وضمّه صلاح الدين إلى خدمته[٢٧].

ولقد أثبتت الأحداث حُسن اختيار صلاح الدين لهذا الرجل. وظهر ذلك جليًا إبان الصراع الذي نشب بين صلاح الدين الأيوبي والمُوالين للحكم الفاطمي، حيث انحاز الحاجب لؤلؤ إلى جبهة صلاح الدين، والراجح أنه انحاز للأسباب الآتية :

أولًا: من المؤكد أن ولاء حسام الدين لؤلؤ كان قد تحوّل لسيده الجديد صلاح الدين منذ أن أصبح وزيرًا للخليفة العاضد، والمتحكم في كل شئون الدولة، جريًا على عادة الوزراء العظام الذين كانوا هم الحكام والخلفاء الفعليين، وبيدهم أمور الدولة المدنية والعسكرية.

ثانيًا: لم يكن الحاجب لؤلؤ فاطميًا ولا من شيعتهم، ولذلك لم يكن يعنيه في شيء سقوط الدولة الفاطمية، والتي كان قد رأى بأم عينيه تدهورها وضعفها في سنواتها الأخيرة، وتوقع سقوطها إمّا عاجلًا أو آجلًا، الأمر الذي يُفسر عدم وقوفه ضد محاولات صلاح الدين لإسقاطها.

ثالثًا: ربما أدرك بثاقب بصيرته أن النصر سيكون حليف صلاح الدين، ولذلك تطلع أن يكون له دور في دولة صلاح الدين الوليدة.

لهذه الأسباب مجتمعة انحاز لؤلؤ لجانب صلاح الدين. وكانت المكافأة أن قَلَّدَه صلاح الدين رئاسة الأسطول المصري كما سيأتي ذكره.

فبعد زوال الدولة الفاطمية رأى صلاح الدين ضرورة الاهتمام بالبحرية الإسلامية بمصر والشام، والتي كانت قد ضَعُفت بعد استيلاء الصليبيين على عسقلان، وصور، وعكا، وغيرها من مدن الساحل الشامي، وامتدت غاراتهم إلى مدن ساحلية أخرى لا تقل أهمية مثل: دمياط، ورشيد، وعيذاب؛ ولذلك خصّ صلاح الدين الشئون البحرية والأسطول المصري بعناية فائقة، فأفرد له ديوانًا خاصًا وميزانية خاصة[٢٨]، وربما كان سبب اهتمامه بالأمور البحرية مباشرة بعد اسقاط الخلافة الفاطمية، أنه كان يخشى مجيء حملة بحرية من ناحية إفريقية، أو من ناحية الصليبيين، وأحلافهم البيزنطيين والصقليين كما حدث قبل ذلك، بحجة التدخل لإعادة الخلافة

الفاطمية، أو أنه رأى البحرية الفاطمية ودُور الصناعة في حال تدعو إلى العناية، بعد أن نزل بها ما نزل بسبب احراق الوزير الفاطمي شاور[٢٩] لمدينة الفُسّطاط ودور الصناعة بها، غداة حملة الملك الصليبي عموري الأول Amaury I (١١٦٣-١١٧٤م/٥٥٨-٥٦٩هـ)[٣٠] الثالثة على مصر في صفر ٥٦٤هـ/ نوفمبر ١١٦٨م، أو أنه أخذ في ترتيب شئونه الحربية عامة، بمجرد أن صار صاحب الأمر في مصر بعد وفاة العاضد، بدليل اهتمامه بالجيش في السنة نفسها[٣١].

ما يَهُمنا هنا الأسطول الذي أعاد صلاح الدين الأيوبي تنظيمه، فجعل له ديوانًا خاصًا، وخصّ له نفقات شملت خراج اقليم الفيوم، والحبس الجيوشي[٣٢] وغيره، بلغت قيمتها ثمانية آلاف دينار، بالإضافة إلى مُتَحَصّل الزكاة وقدره أكثر من خمسين ألف دينار، ومُتَحَصّلات أخرى[٣٣]. كما زاد صلاح الدين رواتب المُشّتغلين بالأسطول، فقرر أن يكون دينار الأسطول بثلاثة أرباع الدينار العام ($^3/_4$)، بعد أن كانت قيمته ($^5/_8$) خلال العهد الفاطمي[٣٤]. ولرئاسة هذا الأسطول لم يجد صلاح الدين سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م أفضل من حسام الدين لؤلؤ ليجعله أميرًا للبحار، ومُقَدَمًا للأسطول المصري [٣٥]، ومنذ ذلك التاريخ أصبح من مهام حسام الدين لؤلؤ رئاسة السفن الحربية، والمسؤول عن إدارة المعركة وسلامة جنده، وأُعطيت له باعتباره أميرًا للبحر سلطة مطلقة في إعداد الحملات بسبب خطورة حرب البحار[٣٦]. وقد كتب صلاح الدين إلى سائر البلاد المصرية بوجوب طاعته وتلبية احتياجاته: "القول قول صاحب الأسطول، وأن لا يُمنع من أخذ رجاله، وما يحتاج إليه، وألّا يبرح البحر"[٣٧].

لو دققنا النظر في المهام الحربية –سالفة الذكر– التي أُعطيت لحسام الدين لؤلؤ، سَنُدرك خطورة المنصب الذي حَازّه، والذي يوازي حاليًا رتبة قائد القوات البحرية. وبتَقَلُّد لؤلؤ هذا المنصب، أصبح واحدًا من أكابر رجال دولة صلاح الدين الأيوبي.

دور حسام الدين لؤلؤ الجهادي ضد الصليبيين

بعد أن تبوأ حسام الدين لؤلؤ منصب مُقَدَم الأسطول المصري، بدأت مرحلة مهمة في حياته الجهادية ضد الصليبيين استمرت حتى وفاته آواخر القرن السادس الهجري/ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي.

والواقع أن المُطالع للمصادر المعاصرة التي أرّخت للدور الجهادي الذي قام به لؤلؤ، يلحظ رصدها للعديد من المهام والعمليات البحرية التي قام بها الأسطول المصري ضد

الصليبيين طوال الفترة الممتدة منذ تولي لؤلؤ رئاسة الأسطول وحتى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م؛ ولكن دون أن تُصرِّح تلك المصادر باسم حسام الدين لؤلؤ. ولكن ليس معنى هذا أنه لم يكن له دور خلال تلك الفترة. وإنما من المنطقي تَصُور مشاركته في تنفيذ المهام العسكرية البحرية التي كُلِّفَ بها الأسطول المصري باعتباره مُقَدَّمًا للأسطول حتى لو لم يتم الإشارة إلى اسمه بطريقة مباشرة.

ومن ذلك حديث أبو شامة وغيره عن خروج الأسطول المصري لمهاجمة سفنًا صليبية سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م، حيث ظَفَرَ الأسطول المصري بسفينتين كبيرتين من السفن الصليبية، تم نقلهما إلى ميناء الإسكندرية، وبهما أكثر من ألف أسير(٣٨).

وعقب تلك الواقعة، أمر صلاح الدين الأيوبي الأسطول المصري بالخروج أواخر سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م لمهاجمة مدينة عكا الصليبية(٣٩)، ونجح الأسطول المصري في مهاجمة السفن الصليبية الرابضة بعكا، فانقض على عدد منها ""تحطيما وتكسيرا"، وأخلى الميناء من الباقي، ولعل هذا النصر الباهر كما يقول سيد الحريري "لم يُعهد من أسطول إسلامي في سالف الدهر"(٤٠).

إزاء هذه الضربات المُوجعة التي وجهها الأسطول المصري للصليبيين اضطر الملك الصليبي بلدوين الرابع Baldwin IV (١١٧٤م-١١٨٥م/٥٧٠هـ-٥٨١هـ) (٤١) إلى طلب عقد هدنة مع المسلمين، فوافق صلاح الدين على عقدها سنة ٥٧٧هـ/١١٨٠م، والتي جعلت صلاح الدين في حِلّ من مهاجمة الصليبيين في شمال الشام، وبخاصة إمارة طرابلس؛ لذلك استدعى صلاح الدين الأسطول المصري مرة ثانية إلى مياة الشام في السنة ذاتها، فهاجم طرسوس(٤٢)، وأنزل بها كثيرًا من الخسائر مما اضطر الكونت ريموند الثالث Raymond III of Tripolis (١١٥٢م-١١٨٧م/٥٤٧-٥٨٣هـ) (٤٣) أمير طرابلس إلى عقد هدنة مشابهة مع صلاح الدين(٤٤).

وعندما فكر صلاح الدين في الإستيلاء على ميناء بيروت، ليفصل إمارتي طرابلس وأنطاكية عن مملكة بيت المقدس، جمع قواته سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م بجنوب دمشق، وأرسل إلى أخيه العادل الأيوبي بمصر يأمره بتجهيز الأسطول المصري لمباغتة بيروت من ناحية البحر؛ وتنفيذًا لأمر السلطان صلاح الدين، أعدَّ العادل في دمياط والإسكندرية أسطولا مصريًا بَلَغَ ثلاثين سفينة حربية، أرسله إلى بيروت، ومن البديهي أن يكون الحاجب لؤلؤ على رأس هذا

الأسطول بصفته مُقَدَّمًا وقائدًا له. وقد نجح الأسطول في النَيّل من سفينة صليبية، وأسر مْنّ بها، وكان عدد الأسرى ألفا وستمائة وستة حسب تقدير ابن الأثير، وألفًا وخمسائة حسب تقدير وليم الصوري, فضلًا عن تعرض بيروت لحصار مُحكم برًا وبحرًا [٤٥].

على أية حال؛ فإذا كانت المصادر المعاصر لم تُصرِّح باسم لؤلؤ خلال أحداث المعارك البحرية السابقة، فإنها ذكرته صراحة منذ سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م وما بعدها. فهذه السنة بالذات شهدت دوره البطولي في حفظ بلاد الحرمين الشريفين، والذي لم ينساه له التاريخ.

والواقع أننا لا نُبالغ إذا قُلنا أن أهم وأعظم ما قام به حسام الدين لؤلؤ من أعمال سطَّرها له التاريخ، وشهدت على حنكته وبراعته العسكرية، هو انتصاره على الصليبيين في موقعة الْحَوْرَاء البحرية [٤٦] والتي وقعت أحداثها خلال الفترة الممتدة من المحرم إلى ذي الحجة سنة ٥٧٨هـ/ مايو ١١٨٢م –أبريل ١١٨٣م.

ففي المحرم ٥٧٨هـ/مايو ١١٨٢م أقدم رينو دي شاتيون Renaud de Chatillon [٤٧] حاكم إمارة الكرك، والمعروف في المصادر العربية بـ "أرناط" على مشروع خطير استهدف حسب رأي المؤرخين المسلمين المعاصرين إلى تحقيق ثلاثة أهداف خطيرة، أولها: قطع طريق الحُجّاج إلى مكة المكرمة، وثانيها: الاستيلاء على ميناء أيلة شمال البحر الأحمر، وعدن جنوبًا، وبذلك يسيطر الصليبيون على طريق التجارة الدولية بهذا البحر، وثالثها: غزو الحرمين الشريفين بمكة والمدينة، ونبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، ونقل رفاته إلى الكرك فلا يُسّمَح بزيارته إلا بعد دفع رسوم مقابل الزيارة[٤٨].

أما المؤرخ الصليبي الوحيد الذي أشار إلى هذه الحملة وهو إرنول Ernoul [٤٩] فقد رأى في حملة رينو دي شاتيون مغامرة لاكتشاف الجانب الآخر من البحر الأحمر. بينما أقر الفرنسي شلومبرجيه Schlumberger بإن الدافع من وراء الحملة كان السّلب والنّهب، ورغم إقراره بذلك يذهب إلى اعتبار هذا العمل من مآثر ذاك الفارس الصليبي ![٥٠].

كذلك اعتبر أحد الباحثين الغربيين [٥١] هذا العمل بمثابة مغامرة عبقرية رائعة لضرب أمن البحر الأحمر. في حين رأى بيرنارد هاميلتون .Hamilton B [٥٢] أن غرض رينو من ذلك كان تَوّجيه نظر صلاح الدين عن حلب, وشَّغّله حتى لا يتمكن من توحيد الجبهة الإسلامية. ويُضيف محمد مؤنس عوض دافعًا آخر، يتعلق برغبة رينو دي شاتيون في الانتقام من

المسلمين بضرب أعز مقدساتهم؛ وذلك تنفيسًا عن رغبة كامنة لديه، وهي عقدة الأسر الذي امتد ستة عشر عامًا في سجون المسلمين (١١٦٠-١١٧٦م/٥٥٥-٥٧١هـ) [٥٣].

تبدو جميع الآراء السابقة وجيهة باستثناء رأيّ إرنول الذي ذهب بعيدًا معتبرًا حملة رينو بمثابة مشروع استشكافي مبكر لما وراء البحر الأحمر، وكذلك رأيّ هاميلتون الذي حاول أن يُبعد عن رينو دي شاتيون تهمة السلب والنهب؛ مشيرًا إلى أن هدف الحملة كان سياسيًا, وهو محاولة إفساد الحصار الذى كانت تقوم به قوات المسلمين على حلب لإبقاءها خارج دولة صلاح الدين المُوحّدة [٥٤]، ويبدو أن هاميلتون أراد أن يُصّور رينو دي شاتيون فى صورة الأمير الذى يعمل لصالح المملكة, لا لصالحه الشخصي. وهو تَصّور غير دقيق.

على أية حال؛ قرر رينو دي شاتيون تنفيذ محاولته الثانية على بلاد الحجاز [٥٥]، ولكن هذه المرة بحرًا لا برًا، وفي فصل الشتاء؛ لعدة اعتبارات أهمها تجنب المناخ الحار والجاف لمنطقة شبه الجزيرة العربية، ووعورة تضاريس الأرض هناك، والأهم من ذلك استغلال غياب صلاح الدين وجيشه بدمشق [٥٦]. وبدأ رينو في تنفيذ مشروعه ببناء أسطول صليبي مُكَّون من خمس سفن من النوع المُسمى (غربان) [٥٧]، مُطّلية بالقار الأسود لغرض التمويه، حُمِلَت أجزاؤها مفككة على ظهور جِمال البدو من قلعة الكَرَك إلى ميناء أيلة (خليج العقبة) مسافة (١٢٥كم) تحت حراسة نحو ثلاثمائة من عناصر البدو الخَوَّنة بعد أن أغراهم بالمال، وأُعيد تركيبها على ساحل أيلة [٥٨].

تجدر الإشارة هنا إلى أن استراتيجية نقل السفن مُفككة على ظهور الإبل برًا وحتى البحر، ثم إعادة تركيبها مرة أخرى وإنزالها في الخليج المذكور، لم تكن من مُسّتَحدثات رينو دي شاتيون، كما أراد أن يقرر بذلك أحد الباحثين الغربيين [٥٩]. بل سَبَقَ للمسلمين استخدام الطريقة نفسها عندما عزم صلاح الدين على استعادة أيلة من أيدي الصليبيين سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠م، والتي يُرجح أن يكون حسام الدين لؤلؤ قد شارك فيها. كذلك سيعود حسام الدين ويستخدم الطريقة نفسها مرة أخرى كما سيرد الحديث لاحقًا.

أيًا كان الأمر؛ فقد جهَّز رينو دي شاتيون أسطولًا صليبيًا قوامه قُرابة ١٥٠٠ مقاتل، قسّمه إلى فرقتين: الأولى، تألفت من سفينتين، وقد اتجهت في المحرم ٥٧٨هـ/ مايو ١١٨٢م نحو ميناء أيلة، وضربت عليه الحصار [٦٠]، وقد نجحت تلك الفرقة في احراق نحو ستة عشر مركبًا إسلاميًا، كما استولت على مركب ينقل الحجاج من جدة؛ فأسروا جمعًا غفيرًا من الحجاج

فيما بين قوص وعَيْذَاب، وبالجملة فقد عاثوا فسادًا في تلك النواحي "التي لم يعهد المسلمون فيها إفرنجًا قط" حسب وصف المصادر(٦١). ولما كان من المُتعذر على الصليبيين الاحتفاظ بأيلة دون السيطرة على جزيرة القلعة (جزيرة فرعون) المواجهة لأيلة، فقد شرع رينو دي شاتيون في التوجه إلى الجزيرة، وتمكن من الاستيلاء عليها، ومنع عن أهلها الماء (٦٢)، لاجبارهم على الاستسلام(٦٣)، كما نهب الصليبيون مركبين تحملان البضائع والمِيرة من اليمن، وأحدثوا حوادث "ما طُرِق الإسلام بمثلها" حسب وصف المصادر المعاصرة(٦٤).

أمّا الفرقة الثانية فكانت تتكون من ثلاث سفن، سارت نحو عَيْذَاب في مواجهة جدة، مسترشدين ببعض الأدلّاء العرب من بدو المنطقة، كما استغل الصليبيون عدم وجود قوات أيوبية بها لحمايتها، وبالتالي صارت صيدًا سهلًا (٦٥).

واقع الأمر، أن الصليبيين لم يغب عنهم أهمية عَيْذَاب في نطاق تجارة الهند، واليمن، والسودان، وهو ما ألمح إليه المؤرخ الصليبي وليم الصوري الذي أشار إلى أن كل ما تحتاجه المملكة الصليبية من سلع ضرورية كالتوابل، والجواهر، والتحف الشرقية، والمصنوعات الأجنبية كانت تَرِد من الهند، وشبه الجزيرة العربية، والسودان، والحبشة، وبلاد فارس، وغيرها من البلدان المجاورة لها عن طريق البحر الأحمر، حيث يتم تفريغها بمدينة عَيْذَاب، ومنها تُنقل عبر النيل إلى الإسكندرية(٦٦).

وليس أدلَّ على أهمية عَيْذَاب من وصف الرحالة ابن جبير، الذي زار مصر زمن صلاح الدين، والذي حاول إحصاء القوافل المُحملة بالبضائع والتي تسير من عيذاب إلى قوص فلم يتمكن من إحصائها نظرًا لكثرتها، ولا سيما القوافل العيذابية المُحَمَّلَة بسلع الهند الواصلة إلى اليمن، ومن اليمن إلى عيذاب(٦٧).

لهذا شكَّلت عَيْذَاب للصليبيين موضعًا استراتيجيًا مهمًا، دفعهم لضرورة السيطرة عليها، وإخراجها من أيدي المسلمين؛ فسعى رينو إلى الاستيلاء عليها، ونهبها، ونجح في ذلك، ثم توجه بأسطوله إلى أرض الحجاز "فعَظُمَ البلاء، وأعضّل الدّاء، وأشرف أهل المدينة النبوية على خطر"(٦٨) حيث واصل رينو زحفه حتى بلغ مدينة رابغ وسواحل الْحَوْرَاء(٦٩)، ثم زحف إلى المدينة المنورة فلم يبق بينه وبينها إلا مسيرة يوم واحد حسب وصف ابن جبير(٧٠).

وكان تعداد الصليبيين المشاركين في تلك الإغارة نيفًا وثلاثمائة، هذا بخلاف الأعراب الخَوَّنة الذين انضموا إلى الصليبيين، وعملوا كأدِّلاء لهم يرشدونهم إلى داخلية البلاد(٧١)، وهناك

أغاروا على القوافل، والحجاج، "فكانت وقعة عظيمة ما طرق الإسلام بمثلها، وما ظن المسلمون إلا أنها السَّاعة"(٧٢).

لا يُغفل هنا ملاحظة مهمة تتعلق بدور الأعراب البدو في تلك الغارة(٧٣)، فما كان لرينو دي شاتيون أن يمضي في مغامرته تلك بدون هؤلاء البدو الذين أمدّوا القوات الصليبية بالمعلومات والعدد والعتاد(٧٤)، وقد وصفهم العماد الأصفهاني بالمنافقين الذين كشفوا عورات البلاد فكانوا أشد كفرًا ونفاقًا على الإسلام (٧٥).

عندما وصلت أنباء إغارة رينو على الحرمين إلى السلطان صلاح الدين الذي كان وقتها بمدينة حرّان، أرسل إلى أخيه ونائبه بمصر الملك العادل يأمره بتجهيز حسام الدين لؤلؤ للرد على تلك الإغارة(٧٦). والمؤكد أن اختيار حسام الدين لؤلؤ لقيادة هذه الحملة جاء بعد نجاحاته السابقة ضد الصليبيين، فالرجل كما سبق الذكر، خاض على الأرجح معارك بحرية عديدة أظهر فيها براعته، ولعل الدليل على ذلك تلك الرسالة التي بعث بها صلاح الدين إلى الخلافة العباسية، وهي من إنشاء القاضي الفاضل، وفيها وصف صلاح الدين، قائد أسطوله حسام الدين لؤلؤ "بالسّهم الصّائب، والسّيف البتّار، واللّيث المِغْوار (٧٧)، والذي "أينما تَوَجَه فَتَحَ ونَصَر" (٧٨).

لاشك أن المهمة كانت صعبة بالنسبة لحسام الدين لؤلؤ، فالمعلومات التي توفرت عن حملة رينو دي شاتيون، وعددها وعِتادها، ومدى ما وصلت إليه، والزمن الذي قطعته كانت قليلة للغاية، كذلك فإن معرفة المسلمين بإغارة رينو على منطقة الحجاز، كان قد تأخر كثيرًا، فبعض المؤرخين المسلمين قدروه بأربعة أشهر، بينما قدره أحد المؤرخين الغربيين بأنها استغرقت قرابة العام(٧٩). والواقع أن الأمر استغرق ثمانية أشهر، وهي الفترة الفاصلة بين تحرك رينو بسفنه في المحرم ٥٧٨م/مايو ١١٨٢م وحتى صدور الأوامر لحسام الدين لؤلؤ بالتحرك لصد العدوان الصليبي في شعبان ٥٧٨هـ/ ديسمبر سنة ١١٨٢م.

من الصعوبات أيضًا التي واجهت حسام الدين لؤلؤ، عدم وجود أسطول جاهز للتصدي لهذه الغارة(٨٠). لهذا كان على لؤلؤ أن يبدأ من الصفر. فقام على الفور ببناء أسطول من السفن الكبيرة، حُمّلت أجزاؤها مُفَكَكَة على ظهور الجِمال إلى خليج العقبة برًا، ثم أعاد تركيبه هناك، وقد اختلف المؤرخون حول مكان بناء السفن فذكر البنداري، وأبو شامة, وابن واصل أن بناء

السفن كان بالسويس (القُلزُم)[٨١]، بينما ذكر ابن جبير وابن الوردي[٨٢] أن البناء كان بالإسكندرية. والمؤكد أن بناء السفن كان بالسويس لقربها من خليج العقبة مقارنة بالإسكندرية.

وبعد أن تم بناء السفن، شُحِنت "بالرجال البحرية ذوي التجربة من أهل النخوة للدين والحمية" على حد وصف البنداري[٨٣]، ويقصد بهم مجموعة من البحَّارة المغاربة، ضمهم لؤلؤ لقواته، لخبرتهم ومهارتهم في ركوب البحار من خلال عملهم في بحر الروم (البحر المتوسط)[٨٤]، كما وصلته إمدادات من الإسكندرية والقاهرة، فقام بشحن السفن وتجهيزها، وقد قسَّم حسام الدين لؤلؤ أسطوله إلى قسمين: الأول اتجه إلى أيلة في شعبان ٥٧٨هـ/ديسمبر ١١٨٢م، واستعمل النار الإغريقية فأحرق السفن الصليبية، وقتل عددًا من جنودها، وأسر عددًا آخر، وأطلق سراح المأسورين من التُّجَّار، ورد عليهم ما سُلب من بضاعتهم، ثم واصل سيره برًا فتعقب الأعراب واقتص منهم لخيانتهم[٨٥]، أما القسم الثاني من حملة لؤلؤ فقد توجه جنوبًا صوب عَيْذَاب، والتي كان قد غادرها الأسطول الصليبي بقيادة رينو دي شاتيون بعد تدميرها متجهًا للحوراء المواجهة للمدينة المنورة، وبساحل الحوراء أدرك لؤلؤ الجيش الصليبي، فحاصره، وأحرق سفنه، وأسر العديد من جنوده، وأما من تبقى منهم فقد فرّ إلى البر وعلى رأسهم رينو دي شاتيون وبعض البدو الخونة[٨٦].

لقد أظهر لؤلؤ براعة حربية ليس في قتال البحر فحسب، بل وفي البر أيضًا. حيث قام بتعقب فلول الجيش الصليبي برًا، بعد أن أمده بعض العُربان القاطنين هناك بالخيل والجند، ونجح في حصار الصليبيين بوادٍ غير ذي زرع ولا ماء، فلما اشتد بهم العطش، طلب بعضهم الاستسلام، فأسرهم لؤلؤ، وكان ذلك في موسم الحج (شوال- ذي الحجة ٥٧٨هـ/ ٢٨ يناير- ٢٥ أبريل ١١٨٣م) فأرسل بأسيرين منهم إلى مِنَى، حيث نُحِرا كما تُنحر البُدن، في حين عاد ومعه بقية الأسرى إلى مصر [٨٧], وكان جُملة الأسرى حسب رواية ابن الجوزي مائة وسبعين أسيرًا[٨٨]. أمر صلاح الدين بقتلهم جميعًا ليكونوا عبرة لكل من تحدثه نفسه بالاعتداء على حرم الله وحرم رسوله، وتم قتلهم بالفعل بعد استعراضهم في شوارع القاهرة والإسكندرية وغيرهما من المدن الكبرى، وكان الرحالة ابن جبير في زيارة إلى الإسكندرية وقتئذٍ فذكر وصفًا طريفًا لموكب الأسرى[٨٩]. أما رينو دي شاتيون الذي نجح في الهرب، فقد أقسم صلاح الدين على ألا يغفر له فعلته هذه، ونذر دمه[٩٠].

والواقع أن دراسة دور حسام الدين لؤلؤ في معركة الحوراء، ونجاحه الساحق في انقاذ الأراضي الإسلامية المقدسة من الخطر الصليبي يقود إلى الاستنتاجات التالية:

أولًا: إن اختيار صلاح الدين للحاجب لؤلؤ لهذه المهمة، يُؤكد بما لا يدع مجالًا لشك على عبقرية هذا البطل البحرية. وأن اختاره لهذه المهمة الجليلة لم يأت من فراغ، خاصة بعد الانجازات والانتصارات التي حققها لؤلؤ منذ التحاقه بخدمة صلاح الدين.

ثانيًا: لم يدخل حسام الدين لؤلؤ المعركة بشكل عشوائي، بل من الواضح أنه خطط جيدًا لتلك المعركة، ثم تحرك وفق هذه الخطة. فالمُدقق في وصف المصادر المعاصرة لاستراتيجية هذه المعركة يلحظ أنها جزء من استراتيجية وضعها حسام الدين لؤلؤ كانت غايته الأولى منها حماية الحرمين الشريفين. ولكي يحمي الحرمين، رأى أن يبدأ أولًا باسترداد أيلة، حتى يقطع الطريق عن أية امدادات صليبية قد تأتي عبر هذا الميناء. وبعد استعادته، اتجه إلى تحرير عَيْذَاب من السيطرة الصليبية لما لها من أهمية كبرى، ثم توّج أعماله بتعقب فلول الجيش الصليبي، والحيلولة دون وصوله للمدينة المنورة.

ثالثًا: تجلّت حنكته الحربية في استخدامه لمجموعة من البحارة المغاربة؛ لما لهم من خبرة واسعة في العمليات العسكرية البحرية.

رابعًا: قاد الحاجب لؤلؤ خلال هجومه على القوات الصليبية عمليات بحرية مشتركة شارك فيها أسطوله البحري، مع قوات برية في عملية برية – بحرية مشتركة شملت تدمير القوى البحرية للصليبيين في البحر والبر معًا، وهو فن من فنون الحرب البحرية الحديثة.

خامسًا: إذا كان رينو دي شاتيون قد نجح في الحصول على خدمة بعض البدو الخونة، واستخدامهم في محاربة المسلمين، فإن لؤلؤ نجح أيضًا في استقطاب البعض الآخر من العُربان للعمل معه ضد الصليبيين، فأمدوه بما يلزم من الخيول والعتاد، الأمر الذي خلق نوع من توازن القوى.

ومن المهم هنا أن نُقرر؛ أن حسام الدين لؤلؤ قام بدور بطولي في تلك الواقعة، وأحرز نصرًا تغنى به الشعراء، فراحوا ينظمون أسباب مجده، ويشيدون بوقائعه وجهاده وشجاعته، ومن هؤلاء الشعراء أبو الحسن بن الذروي الذي مدحه في إحدى قصائده قائلًا:[٩١] :

مر يَوْم من الزَّمَـــــان عَجِيب كَاد يُبْدِي فِيهِ السرُور الجماد

إِذا أَتَى الْحَاجِب الْأَجَل بأسرى قرنتهم فِي طيها الأصفـــاد

بِجَمَـــال كأنهن جبـــال وعلـــوج كَأَنَّهُمْ أطـــواد
قلت بعد التَّكْبِير لمـــا تبدى هَكَذَا هَكَذَا يكون الْجِهَـــاد
حبذا لُؤْلُؤ يصيد الأعـــادي وســـواه من اللآلي يصـــاد

يتضح من الأبيات السابقة إلحاح فكرة الجهاد ضد الغزاة الصليبيين، وتُبين الدور البطولي الذي قام به لؤلؤ في صد العدوان، وأسر الغزاة المعتدين. كما قال فيه الشاعر الرضي بن أبي حصينة المصري يخاطب الصليبيين(٩٢):

عدوكـم لـؤلـؤ والبحـــر مسكنه والدر في البحـــر لا يخشى من الغير
فأمر حسامك أن يحظى بنحـــرهم فالـدر مذكـان منسوب إلى النحـــر

ومن الأشعار التي قيلت أيضًا في ذلك(٩٣):

قلت وَقد ســافَرت يَا من غَدا جـــهاده يعضـد من حجه
إِذ قيل سَار الْحَاجِب المرتجى فِي الْبَحْر يَا رب الســما نجه
الْبَحْـــر لَا يعـــدو على لُـــؤْلُؤ أَنَّهُ كَـــون من لـــجه

وفيها يُظهر الشاعر براعة لؤلؤ البحرية، للحد الذي بالغ فيه وفي قوته وحنكته، فذكر أن البحر نفسه لا يعدو عليه، لأنه جزء من البحر، وهي مبالغة نابعة بلا ريب من فرط حب الشاعر له، ولإيمانه ببطولاته، ونجاحه في حفظ بلاد الحرمين، وتخليص الأرض المقدسة من شر الخطر الصليبي. فلا عجب بعد ذلك أن يقول أحد الشعراء فيه(٩٤):

يَا حَاجِب الْمجد الَّذِي مَاله لَيْسَ عَلَيْهِ فِي الندى حجبه
وَمن دَعـــوه لؤلؤا عِنْدَمَا صحت من الْبَـــحْر لَهُ نسبه
لله مَا تعْمل من صَـــالح فِيهِ وَمَـــا تظهر من حَسبه
كفيت أهل الْحَرَمَيْنِ العدى وذُدتَ عَن أَحْـــمد والكـــعبة

ومن المدائح الرائعة التي قِيلت فيه أيضًا، قصيدة هنأه فيها أحد الشعراء بعد موقعة الحوراء وذوده عن بلاد الحرمين، وقبر النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، جاء في مطلع القصيدة (٩٥).

إِنَّمَا أَنْت لُـــؤْلُؤ للمعـــــالي جَـــاءَ من أبحر السماح الْعَذَاب

ومن المُلف للنظر هنا تغني كثير من شعراء العصر الأيوبي بحسام الدين لؤلؤ، في عصر كان صلاح الدين وحده مُلهم الشعراء، والمُتَغنَى الأوحد ببطولاته وأمجاده، فإذا بهم

يتغنون ببطل آخر بجانب صلاح الدين، على نحو يكشف عن كفاءة هذا الرجل ودوره الكبير في حركة الجهاد الإسلامي.

والجدير بالذكر، أن مديح الشعراء له لم يقتصر على المعاصرين له فحسب، بل مدحه شعراء مُحدثين كالشاعر البارز أحمد شوقي في إحدى قصائده[٩٦] التي خصَّ فيها بالمدح بارجتين من الأسطول العثماني أثناء وجوده في الآستانة.

ما السُّفْنُ في عددِ الحصى بنوافعٍ حتى يهزَّ لواءَها مِقدامُ
لمَّا لمحتُكما سكبتُ مدامعي فرحًا وطال تشوُّفٌ وقِيامُ
وسألتُ هل من "لؤلؤ" أو "طارقٍ" في البحرِ تخفقُ فوقَه الأعلامُ
يا معشرِ الإسلام في أسطولكم عزٌ لكم ووقايةٌ وسلامُ
جودوا عليه بمالِكم واقضوا له ما تُوجبُ الأعلاقُ والأرحامُ

وفي الأبيات السابقة يُطالب شوقي المسلمين بمساندة أسطول الدولة العثمانية، ثم يُذّكرهم بأمجاد الأسطول الإسلامي، وبقادته العظام أمثال حسام الدين لؤلؤ، وطارق بن زياد. على نحو يؤكد على أن سيرة هذا البطل الجهادي امتدت حتى عصرنا الحديث.

تجدر الإشارة إلى أن دور لؤلؤ الجهادي لم يقتصر على ما أدّاه من دور بطولي في معركة الحوراء، ولكن ثمة أدوار جهادية أخرى قام بها، ومنها دوره في المشاركة في فتح بعض مدن الساحل الشامي. فبعد الانتصار الساحق الذي حققه السلطان صلاح الدين على الصليبيين في معركة حطِّين في ٢٤ ربيع الآخر ٥٨٣هـ/٤ يوليو سنة ١١٨٧م، فضَّل صلاح الدين استرداد مدن الساحل الشامي من أيدي الصليبيين أولًا قبل التوجه لاسترداد بيت المقدس، وهو تخطيط ذكي من صلاح الدين فمن ناحية، يحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التي تربطهم بالغرب الأوروبي، فيبقوا محصورين داخل بلاد الشام، ومن ناحية أخرى يُسّهِل الاتصال البحري السريع بين قواعد الجيش الأيوبي والساحل المصري والشامي[٩٧].

ولكي ينجح صلاح الدين في تحقيق ذلك، كان عليه الاستعانة بالأسطول المصري ليشارك الجيش البري أعماله العسكرية[٩٨]. لذلك فعندما عزم صلاح الين على استعادة مدن الساحل، أرسل من دمشق إلى حسام الدين لؤلؤ يأمره بالخروج على رأس الأسطول المصري من مصر والتوجه ناحية عسقلان، لقطع الطريق على الصليبيين[٩٩]، فخرج الحاجب لؤلؤ على

رأس خمس عشرة سفينة إلى الإسكندرية، ومنها توجه إلى عسقلان [١٠٠] فأقام لؤلؤ في البحر بأسطوله يقطعون الطريق على الصليبيين، "فكلما رأوا لهم مركبًا غنموه، وشانيًا أخذوه"، وبفضل هذا الظهير البحري تساقطت مدن الساحل واحدة تلو الأخرى في يد المسلمين، فسقطت مدن عكا، وعسقلان، ويافا، وصيدا، وبيروت، وجبيل وغيرها[١٠١]، وبعدها توجه صلاح الدين بقواته برًا نحو مدينة بيت المقدس عازمًا على استردادها[١٠٢]. والثابت أن صلاح الدين أراد أن يحمي ظهر جيشه من خلال الأسطول، فأمر لؤلؤ بالخروج للساحل الشامي لقطع الطريق على أية قوات صليبية أو أوروبية قد تأتي من ناحية البحر.

والواقع أن لؤلؤ قام بالمهمة على أكمل وجه "فطفق يكسر، ويكسب، ويسل، ويسلب، ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه، ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه" حسب وصف العماد الأصفهاني[١٠٣].

كذلك استعان صلاح الدين بالأسطول المصري مرة أخرى في حصار مدينة صور في شوال٥٨٣هـ/١١٨٧م، لكن الأسطول تعرض للهزيمة، بعد أن أغار عليه الأسطول الصليبي فجأة في آواخر شوال من تلك السنة، ويُرجع ابن شداد سبب هزيمة الأسطول المصري إلى غفلة رجال الأسطول ليلًا، مما تسبب في مقتل عدد كبير من جنود الأسطول، واستيلاء الصليبيين على خمس قطع بحرية إسلامية، الأمر الذي اضطر صلاح الدين معه إلى رفع الحصار عن صور [١٠٤]. ولعلها الهزيمة الوحيدة التي ذكرتها المصادر المعاصرة للأسطول المصري.

من الواضح أن هذه الهزيمة لم تفّت في عضد لؤلؤ، ولم تصرفه عن أداء بقية أدواره الجهادية. ومن بين تلك الأدوار قيامه بإمداد وتموين مرافيء ساحل بلاد الشام بالزخيرة والأطعمة عند حصار الصليبيين لها. وقد لعب هذا الدور المهم إبان حصار الصليبيين لمدينة عكا سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م. ففي ذلك التاريخ اشتدت أزمة التموين وساءت أحوال المسلمين المُحَاصَرين في عكا. وإذا كان صلاح الدين قد نجح في رجب ٥٨٦هـ/ أغسطس ١١٩٠م في تهريب أربع مائة غرارة من القمح وقدر من الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من بيروت إلى عكا عن طريق البحر، فإن هذا القدر الضئيل من المعونة كان لا يكفي لسد حاجة المدينة أكثر من بضعة أسابيع[١٠٥].

وبسبب تلك الضائقة اضطر أمير عكا بهاء الدين قراقوش أن يبعث برسالة إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي في الأول من شعبان سنة ٥٨٦هـ/ سبتمبر ١١٩٠م يُعلِمه فيها أنه لم يبق لديهم بعكا من الأقوات إلا ما يُبلغهم إلى ليلة النصف من شعبان، فلما وصلت الرسالة إلى السلطان أسّرها في نفسه وأخفاها عمّن حوله، حتى لا يتسرب الخبر إلى المسلمين فتضعف قلوبهم، وبعث السلطان إلى مقدم الأسطول المصري حسام لؤلؤ يُخبره بضرورة تقديم الميرة والمؤونة إلى المسلمين المُحَاصَرين بعكا، فخرج لؤلؤ على رأس ثلاث سفن تحمل الأقوات والأدام والمير وجميع ما يُحتاج إليه في الحصار بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء، ونجح لؤلؤ في الوصول إلى ميناء عكا في الرابع عشر من شعبان، يحمل من الميرة ما يكفي أهل عكا طول الشتاء، وكانت الأزواد والأقوات قد فُنيت، ولم يبق عند أهل عكا ما يكفيهم إلا ليوم واحد، فلما أشرف لؤلؤ على عكا، خرج إليه الأسطول الصليبي ليحول بينه وبين عكا، وإتلاف ما معه من أطعمة، لكن لؤلؤ نجح في إنزال الهزيمة بالأسطول الصليبي ودخل عكا سالمًا، ونجح في إمداد أهلها بالميرة والمؤونة(١٠٦).

لا شك أن حركة الإمداد والتموين التي قام بها لؤلؤ، كان لها بالغ الأثر في ارتفاع الروح المعنوية لدى المسلمين المُحَاصَرين في عكا، وبفضلها أيضًا ظلت حامية عكا صامدة زهاء عشرة أشهر (شعبان ٥٨٦-جمادى الآخرة ٥٨٧هـ/ سبتمبر ١١٩٠م - يوليو ١١٩١م) أمام الحصار الصليبي، وكان يمكن لها أن تطول لولا وصول جيوش الحملة الصليبية الثالثة.

لم يتوقف دور لؤلؤ عند هذا الحد، بل كان صلاح الدين يعتمد عليه أيضًا في مهاجمة السفن الصليبية لتعطيلها، أو للاستيلاء على ما فيها من مؤونة. فعندما نزل الصليبيون على عكا، كتب صلاح الدين إلى مصر بتجهيز الأسطول المصري، فجّهز حسام الدين لؤلؤ خمسين سفينة حربية، وأنفق عليها من ماله الخاص، ثم تحرك على رأس الأسطول فوصل سواحل عكا في منتصف ذي القعدة سنة ٥٨٦هـ/ ديسمبر ١١٩٠م(١٠٧)، فهاجم سفن الصليبيين، وظفر ببسطتين صليبيتين، كانت تحمل الميرة والزخيرة والأمتعة لهم(١٠٨).

يُلاحظ هنا أن دور لؤلؤ لم يتوقف عند حد إمداد المسلمين بالمؤونة، والاسهام في حركة الامداد والتموين للمدن الإسلامية, وإنما شارك أيضًا في تضييق الخناق على الصليبيين، وحرمانهم من الميرة والزخيرة؛ الأمر الذي كان له بالغ الضرر على الكيان الصليبي.

في ختام الحديث عن دور لؤلؤ الجهادي، تبقى زاوية أخيرة تتعلق بتحديد السنة التي تقاعد فيها حسام الدين لؤلؤ عن الخِدمة بالأسطول المصري. ويفترض الباحث أن نهاية خدمته كانت عند سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م، وذلك لاعتبارين: الأول، أنه لم يرد في المصادر أي دور جهادي له بعد هذا العام. ثانيًا: ثمة إشارة مصدرية وردت لدى المقريزي[١٠٩] أفادت أن السلطان صلاح الدين الأيوبي سَلَّم أمر أسطول مصر إلى أخيه الملك العادل سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م، وأن العادل اختار لقيادة الأسطول مقدَّمَ آخر وهو صفي الدين أبو محمد المعروف بابن شُكر[١١٠]. ويُفهم من هذه الإشارة أن مُقَدَّمًا جديدًا حَلَّ مَحلّ حسام الدين لؤلؤ في رئاسة الأسطول في السنة المذكورة. والثابت أن حسام الدين لؤلؤ كان قد كَبُرَ سِنّه آنذاك؛ مما اضطره لترك الخدمة العسكرية، وذلك حسبما أكّدته المصادر [١١١] من أنّ لؤلؤ "ترك الجندية بعد أن كَبُرَ سنه". والمتصور أن يكون لؤلؤ قد تخطى سن السِّتين آنذاك، على اعتبار أنه من مواليد العقود الثلاثة الأولى للقرن السادس الهجري. وبذلك يكون قد أمضى في رئاسة الأسطول حوالي تسعة عشر عامًا امتدت ما بين سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م وحتى سنة ٥٨٧هـ/١١٩٠م قضاها في الجهاد ضد الصليبيين.

رأي مؤرخي عصره فيه

امتاز حسام الدين لؤلؤ بعدة صفات طيبة رصدتها المصادر التي ترجمت له، فكان مقدامًا، وبطلًا من أبطال الإسلام، وكبيرًا من أكابر رجال الدولة في عصره، حسب وصف الذهبي[١١٢]، كما كان عند ابن الأثير[١١٣] شجاعًا في الحروب، وشهمًا، ويمين النقيبة. أما العماد الأصفهاني[١١٤] والذي كان قريبًا من لؤلؤ بحكم عملهما مع صلاح الدين، فقد أسهب في وصفه: " ... وهذا لؤلؤ قد اشتهرت في الكُفر فتكاته، وشكرت في العدو نكاياته، وقد تفرّد بغزوات لم يشاركه فيها أحد، ولم يكن فيها على الإسلام لغيره يد. وما سَلك نهجًا إلا مَلَك، ولا طلب غاية إلا أدرك ... فغزواته مشهورة، وفتكاته مذكورة، وأمواله مبذولة". وقد أكّد أبو شامة[١١٥] على هذه الصفات فذكر: "وكان (أي الحاجب لؤلؤ) من الأيام الصلّاحية أشجع الشجعان، وأفرس الفُرسان، وله مقامات في الغزاة، وموقف مع العداة". كما وصفه البنداري[١١٦] بالسّهم المُختار واللّيث المغوار". وقال عنه المقريزي[١١٧]: "وكان شجاعًا، أينما توّجَه فَتَحَ ونَصر". وعنه ذكر العيني[١١٨] "كان كالشجى في حلوق الإفرنج في البحر". وكلها بلا شك أوصاف تؤكد على شجاعته، وكفاءته الحربية، وتاريخه الحربي يشهد له بذلك.

وفي رسالة بقلم القاضى الفاضل مُرسلة من السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى أخيه الملك العادل بشأن انتصار الأسطول المصرى على الأسطول الصليبي بمعركة الحوراء سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م وصف صلاح الدين، القائد حسام الدين لؤلؤ بقوله: "وما كان الحاجب لُؤْلُؤ فيها إِلَّا سَهْمًا أصاب وَحُمدَ مُسَدَّده، وسيفًا قَطَعَ وشُكِرَ مجرّده، ورسولًا عليه البلاغ وإن لم يُجْهل ما أَثَّرَتْهُ يَدُه، وقد غَبَطْناه بأَجْر جهاده، ونجح اجْتِهَاده، رَكِبَ السَّبِيلَيْنِ برًا وبحرًا، وامتطى السَّابِقين مركبًا وظَهْرًا، وخطا فأوسع الخطو، وغزا فأنجح الغزو، وحَبَّذا العِنَان الذي في هذه الغزوة أُطْلق، والمال الذي في هذه الكرَّة أُنفق .." [١١٩]. وهي شهادة من صلاح الدين لها دلالتها التاريخية الكبرى.

بجانب وصف المصادر له بالشجاعة والإقدام، كان أيضًا كريمًا جَوَادًا، كثير الصَّدقات[١٢٠]، ومن دلائل جُوده وكرمه أنه لما حَلَّ القحط بالقاهرة سنة ٥٩٦هـ/١٢٠٠م والسنوات التي تلتها، وارتفعت الأسعار، وعمّ البلاء، ابتكر الحاجب لؤلؤ مكرمة لم يسبق إليها أحد، فكان يخبز كل ليلة أربعة وعشرين ألف رغيف يوّزعها بنفسه على الفقراء، وظل هذا دأبه خلال سنوات المجاعة، حتى حلَّ الرخاء وانقشع القحط[١٢١]. وكان فوق ذلك صّوامًا قّوامًا مُتعبِدًا، حتى عده مؤرخو عصره من الأولياء والأبدال الصالحين[١٢٢].

ولم تقتصر صدقاته على أيام المجاعة فقط، بل كان هذا دأبه حتى في أيام الرخاء، فذكرت المصادر أنه لما تقدم في العمر، ترك الجندية، وزوّج بناته الأربع، وأعطى ابنيه ما يكفيهما، ثم شرع يتصدق بما تبقى لديه من مال، فكان حسب وصف المصادر يتصدق كل يوم بطعام عدّة قدور، وباثني عشر ألف رغيف، ويضاعف هذا العدد في شهر رمضان[١٢٣]. وبلغ من تواضعه أنه كان يُقدّم الطعام بنفسه، فكان يبدأ بالرجال، ثم النساء، ثم الصبيان، وكان الفقراء مع كثرتهم لا يزدحمون، لعلمهم أن الطعام سيكفيهم جميعًا، حتى إذا فرغ من إطعام الفقراء، بسط للأغنياء موائد "تعجز الملوك عن مثلها" حسب وصف المصادر، فصار له على المسلمين مِنَّة تُوجِب أن يترّحموا عليه[١٢٤].

ومن المهم هنا، إبراز حجم الانفاق الذي كان ينفقه حسام الدين لؤلؤ على الفقراء سوء أيام المجاعة أو الرخاء. إذ يذكر أحد الباحثين المحدثين أن سعر الرغيف وصل زمن المجاعات من عشر إلى خمسة عشر دينارًا[١٢٥]، وهو ما يعني أن لؤلؤ كان يُنفق على الخبز وحده ما جملته ١٢٠ ألف دينار يوميًا في غير رمضان، و٢٤٠ ألف دينار يوميًا في رمضان –على

أقل تقدير- هذا بخلاف ثمن الأطعمة، والتي كانت بطبيعة الحال تفوق أثمان الخبز. وإذا أضفنا إلى ذلك انفاقاته الأخرى على المنشئات الخيرية، أدركنا أنه كان يُنفق ملايين الدنانير سنويًا. ويمكن قبول حجم هذه الانفاقات، في ضوء ما عُرف عن لؤلؤ من الثراء الفاحش؛ نتيجة للعطاء الذي أجزله صلاح الدين وأخوه العادل له ولبقية العاملين في الأسطول المصري(١٢٦).

كذلك لا يفوتنا هنا أن نُذّكِر بدوره في الانفاق على حركة الجهاد الإسلامي نفسها. فقد ذكر العماد الأصفهاني عنه أنه أنفق من ماله الخاص على تجهّيز خمسين سفينة حربية، تحرك على رأسها لمهاجمة الصليبيين المُحاصِرين لعكا في منتصف ذي القعدة سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م(١٢٧).

الجدير بالذكر أن هذا الكرم في الانفاق كان مثار اعجاب الشعراء للحاجب لؤلؤ، فمدحه ابن الذروي بقصيدة مطلعها(١٢٨):

لَئِن كنت من ذَا الْبَحْر يَا لُؤْلُؤ الْعلَا نتجت فَإِن الْجُود فِيك وَفِيه

وَإِن لم تكن مِنْهُ لأجل مذاقه فَإِنَّك من بَحر السماح أَخِيه

منشآته

لم تقتصر أعمال البر لدى الحاجب لؤلؤ عند حد الصدقات، بل ترك الرجل منشئات خيرية ظلّت قائمة ينتفع بها الناس حتى القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. فقد ذكر المقريزي أن الحاجب لؤلؤ بنى قبل وفاته مسجدًا حمل اسمه، بمنطقة القرافة(١٢٩) الصغرى بالقاهرة بسفح المُقَطَّم، وبجوار المسجد بنى له قبرًا، وحفر بجواره أيضًا بئرًا (١٣٠).

كما بنى بالقاهرة أيضًا حَمَّامًا عُرف باسمه، فضلًا عن بستان وأحواض(١٣١). كما جمع لؤلؤ سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م بين مسجد الأندلس -وهو مسجد كان قد بُني سنة ٥٢٦هـ/١١٣٢م- وبين رباط كان قد بُني في السنة ذاتها للعجائز والأرامل الصالحات المنقطعات للعبادة، فقام لؤلؤ ببناء حائط بين المسجد والرباط، وبجواره أنشأ دار بقر للساقية التي تستقي الماء الذي يجري إلى البستان، وقام بهذا العمل احتفاءً بمقدم أحد مشايخ الشافعية، كان قد حلَّ عليه ضيفًا. وقد ظلت هذه المنشآت موجودة حتى عهد المقريزي(١٣٢) ، ثم خَرِبت هذه الأحواض ودَثُرت (١٣٣). وإن دلّت هذه المنشئات على شيء، فإنها تدل على كرم الحاجب لؤلؤ، وتقواه، وورعه.

وفاته

اتفقت المصادر على مكان وفاة حسام الدين لؤلؤ، فأجمعت على أنه توفى بالقاهرة، ودُفن بتربته التي بناها بالقرّافة بسفح المُقَطَّم [١٣٤]. أما سنة وفاته فهي محل خلاف بين المؤرخين. فقد انقسم المؤرخون إلى فريقين، الفريق الأول رأى أنه توفى سنة ٥٩٦هـ/١٢٠٠م، فذكر ابن الجوزي والعيني[١٣٥] أنه توفى في شهر جمادى الأولى من سنة ٥٩٦هـ/١٢٠٠م، في حين أشار أبو شامة[١٣٦] الذي ينقل عن العماد الأصفهاني أن وفاته كانت بجمادى الأخرة من السنة ذاتها، ويتفق معه المقريزي[١٣٧] والذي حدد الوفاة بالتاسع من الشهر ذاته من تلك السنة. أما الفريق الثاني فيرى أن وفاته كانت سنة ٥٩٨هـ/١٢٠٢م، فيذكر كل من الذهبي واليافعي وابن العماد وغيرهم[١٣٨] أنه توفى في صفر سنة ٥٩٨هـ/١٢٠٢م. ويحدد كل من ابن الفرات والمنذري[١٣٩] الوفاة بالثالث عشر من صفر من السنة ذاتها.

ويميل الباحث إلى الرأي القائل بأن وفاته كانت سنة ٥٩٨هـ/١٢٠٢م، اعتمادًا على إشارة مصدرية ذكرت أنه ظل يُنفق من ماله الخاص، ويُطعم الفقراء طوال فترة المجاعة التي تعرضت لها مصر حتى زالت المحنة وعمَّ الرخاء، فذكر أبو شامة وغيره ما نصّه: "وكان هذا دأبه في هذا الغلاء حتى ذهب الرَّخاء فحينئذٍ تنوعت صدقاته، واستغرقت بالصلوات أوقاته .."[١٤٠].

وبالبحث في تاريخ تلك المجاعة التي تعرضت لها مصر خلال عهد حسام الدين لؤلؤ تَبيّن حسب ما أوردته أغلب المصادر أنها بدأت سنة٥٩٦هـ/١٢٠٠م، وانتهت سنة ٥٩٨هـ/١٢٠٢م[١٤١]. وبذلك فإن القول بوفاته سنة ٥٩٦هـ/١٢٠٠م يتنافى مع الإشارة المصدرية التي أشارت إلى أن وفاته كانت بعد انقضاء سنوات المجاعة.

نتائج البحث

خَلُصَ البحث إلى عدة نتائج يمكن إجمالها في الآتي:

أولًا: أن المجد العسكري الذي حققه السلطان صلاح الدين الأيوبي، تحقق من خلال قادة وأبطال كُثُر أمثال حسام الدين لؤلؤ وغيره، وإن لم يحوذوا على نفس الاهتمام الذي حاذ عليه صلاح الدين من قِبَلْ المؤرخين المعاصرين والمتأخرين.

ثانيًا: تتجلى عبقرية صلاح الدين الحربية في اختياره للرجال من حوله، الذين عهد إليهم تولى المناصب الكبرى في دولته، ومن ذلك اختياره لأرمني الأصل حسام الدين لؤلؤ ليتولى منصب مُقَدَّم الأسطول المصري، والذي أثبتت الأحداث حُسن اختياره.

ثالثًا: كشفت الدراسة أننا أمام بطل بحري كبير عاش خلال فترة فاصلة امتدت من العقود الثلاثة الأولى للقرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وحتى سنة ٥٩٨هـ/١٢٠٢م. وهي فترة دقيقة شهدت أحداث كبرى، تطلبت هذه النوعية من القادة الأفذاذ.

رابعًا: أوضحت الدراسة الدور البطولي الذي لعبه حسام الدين لؤلؤ، والذي سطَّره له التاريخ في معركة الحوراء التي وقعت سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م. فكان له الفضل في تطهير البحر الأحمر من الخطر الصليبي، وحماية بلاد الحرمين. على نحو خلّد سيرته فتغنى به شعراء معاصرون، وكذلك شاعر حديث كبير ألا وهو الشاعر أحمد شوقي.

خامسًا: كشفت الدراسة أيضًا عن تنوع الأدوار التي قام بها حسام الدين لؤلؤ، فقام بدور الظهير البحري للجيش، الأمر الذي ساعد في استرداد المسلمين لمدن الساحل الشامي واحدة تلو الأخرى، مثل: عكا، وعسقلان، ويافا، وصيدا، وبيروت، وجبيل وغيرها. كما قام بدور بارز في إمداد وتموين مرافيء ساحل بلاد الشام بالزخيرة والأطعمة عند حصار الصليبيين لها.

سادسًا: بيّنت الدراسة الجانب الخيري الذي تحلى به حسام الدين لؤلؤ، فكان مثالًا لرجل الخير الذي تعددت صدقاته واحساناته.

الخرائط

خريطة (١): توضح خط سير حملة رينو دي شاتيون (أرناط) سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م

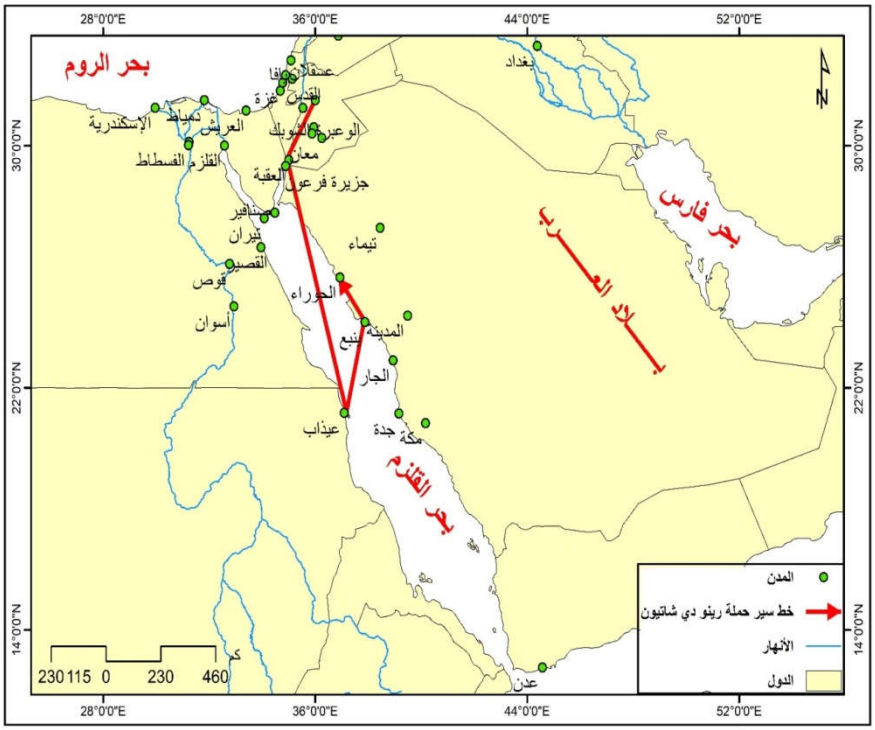

نقلًا عن: عبدالله بن عبدالرحمن الربيعي: السياسة الصليبية تجاه البحر الأحمر، ص١٢٠.

(خريطة مُعَدَّلَة بواسطة الباحث).

خريطة (٢) خط سير حملة حسام الدين لؤلؤ سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م

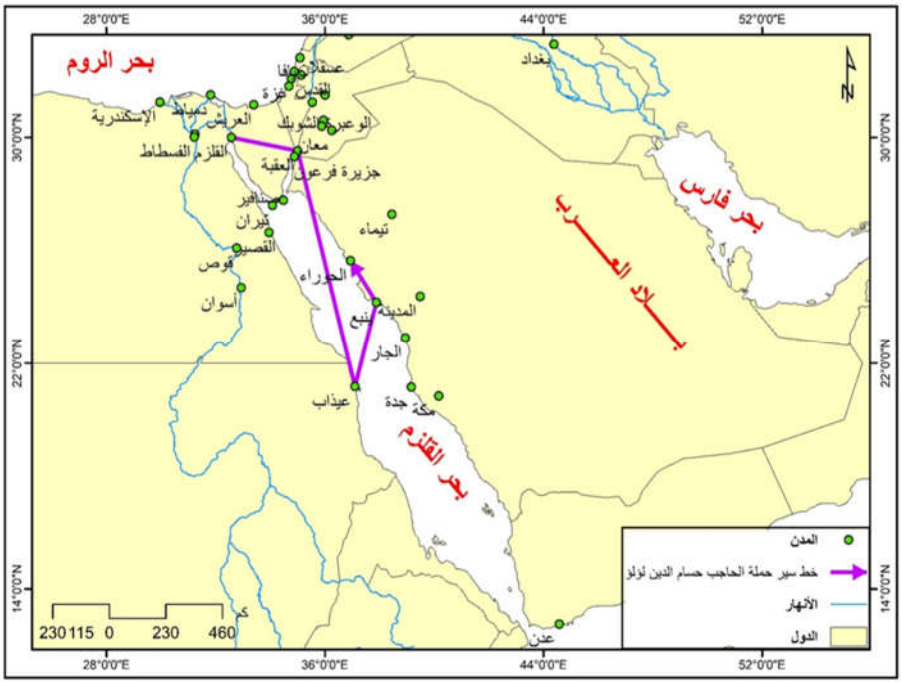

نقلًا عن: عبدالله بن عبدالرحمن الربيعي: السياسة الصليبية تجاه البحر الأحمر، ص١٢٠.

(خريطة مُعَدَّلَة بواسطة الباحث).

خريطة (٣): توضح موضع إمارة الكرك وخليج أيلة (العقبة) وجزيرة فرعون

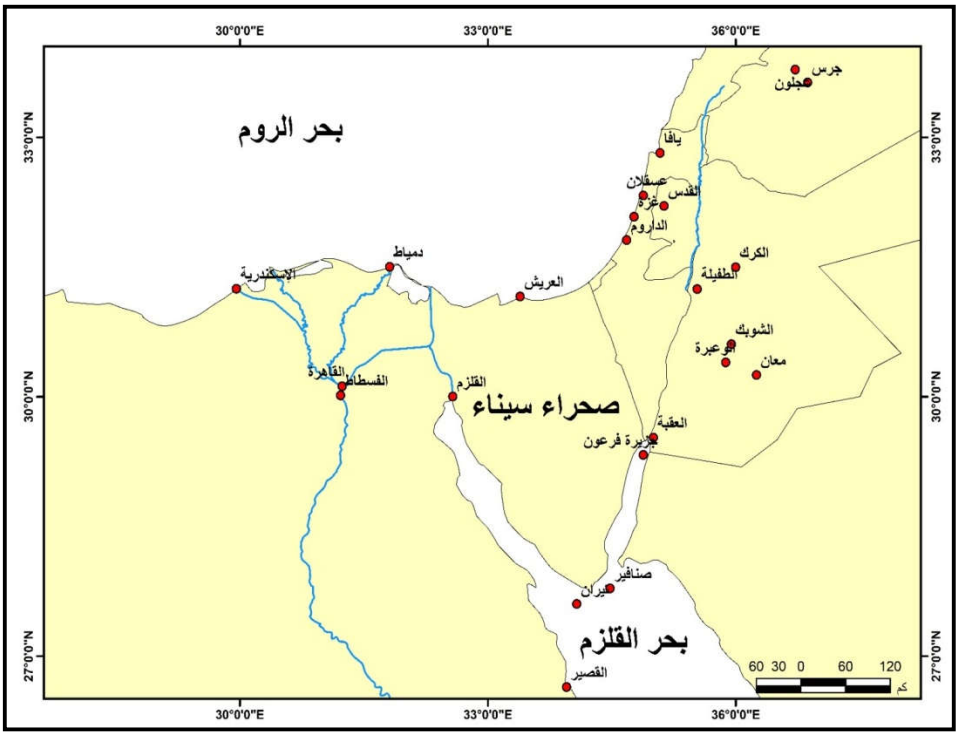

نقلًا عن: عبدالله بن عبدالرحمن الربيعي: السياسة الصليبية تجاه البحر الأحمر، ص١٢٠.

(خريطة مُعَدَّلَة بواسطة الباحث).

هوامش البحث:

(١) قائد الأسطول المصري في عهد صلاح الدين، مجلة الرسالة، العدد (٨٠٥)، القاهرة، ديسمبر ١٩٤٨م.
وأحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي، مؤرخ وأديب وشاعر مصري، ولد بدمياط سنة ١٩٠٦م، تَخرّج من كلية دار العلوم سنة ١٩٣٣م، عمل مدرسًا بعدد من المدارس الحكومية، إلى أن حصل على درجتيّ الماجستير والدكتوراة من كلية دار العلوم في أدب العصور الوسطى الوسطى، ثم عمل بالتدريس في الكلية نفسها حتى أصبح أستاذًا للنقد الأدبي. له العديد من المؤلفات المهمة لعل أشهرها في مجال التخصص كتابه : "الحياة الأدبيَّة في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام". توفي بالقاهرة سنة ١٩٦٤م. أنظر: محمد عبدالجواد: تقويم دار العلوم (تاريخها، خططها، أساتذتها)، دار المعارف، ط.القاهرة، د.ت، ج١، ص١٢٩؛ وأنظر: الموقع الإلكتروني لمؤسسة هنداوي:
https://www.hindawi.org/contributors/15858053

(٢) اختط ابن الأثير لنفسه –كما هو مَعْلوم - منهجًا في الكتابة مُعتمدًا على النظام الحولي، أو ترتيب الحوادث حسب السنين، واعتاد أن يختم أحداث كل سنة بجمع الحوادث الصغيرة تحت عنوان "ذكر عدة حوادث"، ثم يذكر من توفى في تلك السنة حسب ما ذكره بنفسه في صدر مقدمة كتابه الأشهر "الكامل في التاريخ"، " ... وذَكَرت فى آخر كل سنة من توفى فيها من مشهوري العلماء والأعيان والفُضلاء". أنظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط.بيروت ٢٠١٢م، ج١، ص٨. بمراجعة وفيات سنتيّ ٥٩٦ و ٥٩٨ه عند ابن الأثير، وهما السنتان اللتان وضعتهما المصادر كتاريخين لوفاة الحاجب حسام الدين لؤلؤ، وأيضًا ما قبلهما وما بعدهما، لا أجد أي إشارة عن وفاة الحاجب لؤلؤ؛ في حين أشار ابن الأثير إلى وفاة شخصيات أقل منه شهرة وفضلًا ومكانة، فذكر على سبيل المثال وفاة الشيخ أبو الفرج عبدالمنعم الحرّاني، ووفاة "بنفشة" جارية الخليفة المستضيء بأمر الله، ووفاة الخطيب عبدالملك بن زيد الدُّولفي، خطيب دمشق !. راجع وفيات سنتيّ ٥٩٦ و ٥٩٨ه: الكامل في التاريخ، ج١٠، ص ص١٧٢؛ ١٨٦-١٨٧.

(٣) ذُكِرَ باسم حُسام الدين لُؤلؤ عند كل من: العماد الكاتب الأصفهاني، والقاضي عماد الدين الأصفهاني والبنداري، وابن الأثير، وأبو شامة، والمقريزي. أنظر: الفتح القسي في الفتح القدسي – حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس، دار المنار، ط.١، بيروت ٢٠٠٤م، ص٦٦، ١٨٤؛ البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري, المكتبة العصيرية، ط.١، بيروت ٢٠٠٢م، ص٤١٧؛ سنا البرق الشامي (٥٦٢-٥٨٣ه / ١١٦٦ –١١٨٧م)، تحقيق: فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، ط.القاهرة ١٩٧٩م، ص٢١٣؛ الكامل، ج١٠، ص٣٣؛ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق وتعليق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، ط.١، بيروت ١٩٩٧م، ج٣، ص١٣٣؛ ج٤، ص١٠٣؛ السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، ط.٢، القاهرة ١٩٥٦م، ج١، ق١، ص٧٩؛ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، ٦ أجزاء، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط. لندن ١٩٩٥م، ج٣، ص٢٨٣.
وذَكَرَه كل من ابن جبير، وابن واصل، وابن الوردي، والذهبي بالحاجب لؤلؤ. أنظر: رحلة ابن جبير، دار صادر، ط.بيروت، د.ت، ص٣٥؛ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط. القاهرة ١٩٥٣م، ج٣، ص٣١٢ ؛ تاريخ ابن الوردي، المطبعة الحيدرية، ط. النجف ١٩٦٩م، ج٢، ص١٣٢؛ العبر في خبر من غبر, تحقيق: صلاح الدين المنجد، ط. الكويت ١٩٦٠م، ج٤، ص٣٠٤؛ سير أعلام النبلاء، تحقيق: بشّار عوّاد معروف و محيي هلال السرحان، مؤسسة الرسالة، ط.١، بيروت ١٩٨٤م، ج٢١، ص٣٨٤؛ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، ج٤٢، دار الكتاب العربي، ط.١، بيروت ١٩٩٧م، ص٣٦٣.
وزاد ابن الفرات فذكر أن اسمه، لؤلؤ بن عبدالله العادلي الحاجب. أنظر: تاريخ ابن الفرات، تحرير ونشر: حسن محمد الشماع، دار الطباعة الحديثة، ط. البصرة ١٩٦٩م، مج٤، ج٢، ص٢٤٥. ولم يقف الباحث على أي مصدر معاصر أو متأخر يذكر توليه منصب الحجابة.
أما المنذري، وبدر الدين العيني، ومجير الدين العُليمي، فقد نعتوه بالأمير الأجل الحاجب لؤلؤ بن عبدالله العادلي. أنظر: التكملة لوفيات النقلة، تحقيق وتعليق: بشّار عوّاد معروف، مؤسسة الرسالة، ط.٣، بيروت

١٩٨٤م، ج١، ص٤١٧؛ عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمود رزق محمود، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، ط. القاهرة ٢٠٠٧م، ج٣، ص١٢٠؛ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، إعداد وتحقيق ومراجعة: عدنان يونس عبدالمجيد أبو تبانة، إشراف: محمود علي عطاالله, مكتبة تنديس، ط.١، عمان ١٩٩٩م، مج١، ص٤٥٩. والواقع أن هؤلاء المؤرخين الثلاثة هم الوحيدين الذين نعتوه بالإمارة. والثابت أنه حمل هذا اللقب بعد تعيينه في وظيفة أمير البحر أو مُقَدَم الأسطول المصري سنة ١١٧١م/٥٦٧ه.

أما سبط ابن الجوزي، وابن العماد الحنبلي فذكراه بلؤلؤ الحاجب بن عبدالله العادلي دون اقتران الاسم بالإمارة. أنظر: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تحقيق: إبراهيم الزيبق، الرسالة العالمية، ط.١، بيروت ٢٠١٣م، ج٢٢، ص٨٧؛ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق وتعليق: محمود الأرناؤوط، إشراف: عبدالقادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط.١، بيروت ١٩٨٦م، ج٦، ص٥٤٨.

في حين جاء ذكره عند اليافعي، وأبو محمد الطيب بامخرمة باللؤلؤ الحاجب العادل. أنظر: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، ط.١، بيروت ١٩٩٧م، ج٣، ص٣٧٤؛ قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، تحقيق: بو جمعة مكري وخالد زواري، دار المنهاج، ط.١، جدة ٢٠٠٨م، مج٤، ص٣٨٢.

(٤) الحَاجِب: اسم فاعل من الحَجْب وهو المنع من الدخول، وهي وظيفة كان يتقلدها من يقف على باب الخليفة يُبلِّغه أخبار الرعية، ويأخذ لهم الإذن منه. وقد أُستُعمِل هذا اللقب كلقب فخري شرفي في بعض الأحيان. أنظر: حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية، ط.القاهرة ١٩٨٩م، ص٢٥١.

(٥) المنذري: التكملة لوفيات النقلة، ج١، ص٤١٧؛ بدر الدين العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج٣، ص١٢٠؛ مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مج١، ص٤٥٩.

(٦) جاء في ترجمة أبو شامة له: "وكان بهيّ الشّيب، نقيّ الجّيب، قد جعل الله البركَة في عُمره وخَصّه مدة حياته بامرار أمره فأنجده في أوَان ضعفه بِتَضْعِيف برّه، ولا شك أنه من الأولياء الأبدال والصَّالِحين". أنظر: الروضتين،ج٤، ص٤٦٦. وجاء في تاريخ اليافعي والمقريزي عنه " ... ثم كَبِرَ وترك الخدمة". أنظر: مرآة الجنان، ج٣، ص٣٧٤؛ المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢٨٣

(٧) الذهبي: العبر، ج٤، ص٣٠٥؛ تاريخ الإسلام، ج٤٢، ص٣٦٤. وأنظر: سير أعلام النبلاء، ج٢١، ص٣٨٥؛ اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج٣، ص٣٧٤؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢٨٣؛ أبو محمد الطيب بامخرمة: قلادة النحر، مج٤، ص٣٨٢؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٥٤٨.

والأرمن هم سكان المنطقة المسماة بأرمينية، وتقع بلاد الأرمن جنوب القوقاز، في الشمال الشرقي من هضبة الأناضول، يحدها من الغرب آسيا الصغرى، ومن الشرق هضبة أذربيجان والشاطيء الجنوبي من بحر الخزر، ومن الشمال والشمال الغربي البلاد الواقعى على بحر بنطش، ومن الجنوب السهل الشمالي الغربي من بلاد ما بين النهرين، وقد تأرجحت أرمينية بين السيادتين البيزنطية والإسلامية حتى نجح العرب المسلمون في بسط سيادتهم عليها في أوائل عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان وتحديدًا سنة ٦٦١/٤٠ه م. أنظر: فايز نجيب إسكندر: الفتوحات الإسلامية لأرمينية (١١-٤٠ه/٦٣٢-٦٦١م)، د.ن، ١٩٨٣م، ج١، ص٦٢-٦٣؛ سهام مصطفى أبو زيد: تاريخ الأرمن في مصر الإسلامية في مائة عام هجرية من سنة ٤٦٦ إلى ٥٦٦ه/١٠٧٣-١١٧١م، دار الكتاب الجامعي، القاهرة ١٩٩١م، ص١١-١٢. وللمزيد عن أرمينية والأرمن أنظر: صابر محمد دياب حسين: أرمينية من الفتح الاسلامي إلى مستهل القرن الخامس الهجرى، دار النهضة العربية، ط. القاهرة ١٩٧٨م؛ ؛ فؤاد حسن حافظ: تاريخ الشعب الأرمنى منذ البداية حتى اليوم، دار نوبار للطباعة، ط.القاهرة ١٩٨٦م، ص٩ وما بعدها؛ محمود شيت خطاب: أرمينية بلاد الروم، دار قتيبة، ط. ٤، دمشق ١٩٩٠م، ص٧-٤١؛ بورنوتيان، جورج: موجز تاريخ الشعب الأرمني من العصور القديمة إلى العصور الحديثة، ترجمة: سحر توفيق، ومراجعة: محمد رفعت الإمام، إشراف: بيرج ترزيان، الدار المصرية اللبنانية، ط. القاهرة ٢٠١٢م، ص١٥-٢٩.

(٨)غِلْمَان: ومفردها "غُلام"، وتُجمع أيضًا على غِلْمةٍ. وهو في أصل اللغة مخصوص بالصبيّ الصغير والمملوك، ثم صارت تُطلق على أرباب الخدم، ويُقصد بهم أحيانًا فريق من العسكر كان يُستعان بهم في

الحروب. أنظر: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية، ط.القاهرة ١٩١٥م، ج٥، ص٤٧١؛ مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة وتقديم وتعليق: حسن حبشي، ط.القاهرة ١٩٥٨م، هامش٢، ص٤٠.

(٩) العاضد لدين الله: أبو محمد عبد الله بن الأمير يوسف بن الحافظ لدين الله عبد المجيد بن محمد بن المستنصر. ولد في المحرم من سنة ٥٤٦هـ. ويُعد الخليفة الرابع عشر وآخر الخلفاء الفاطميين بمصر. تولى الخلافة بمصر في رجب سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م، وهو لا يزال طفلاً لم يبلغ العاشرة، خلفًا للخليفة الفائز بنصر الله، واستمرت خلافته أحد عشر عامًا. توفي بمصر وله من العمر إحدى وعشرين عامًا، وذلك في العاشر من محرم سنة ٥٦٧هـ/ سبتمبر ١١٧١م. أنظر: المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: محمد حلمي محمد، ط. القاهرة ١٩٩٦م، ج٣، ص ص٣٢٨،٢٤٣؛ أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، الدار المصرية اللبنانية، ط.١، بيروت ١٩٩٢م، ص ص٢١٩, ٢٤١.

(١٠) عن تخلص الخليفة الفاطمي أبو عبيد الله المهدي من أبي عبدالله الشيعي. أنظر: علي حسني الخربوطلي: أبو عبدالله الشيعي مؤسس الدولة الفاطمية، ط.القاهرة ١٩٧٣م، ص٦١-٦٤؛ أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، ص٥٠؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر بولاد الشام، دار النفائس، ٢٠٠١م، ص١٩٢؛ ابراهيم علي السيد قلا: تاريخ مصر الإسلامية وجوانب من حضارتها، د.ن، ٢٠٠٧م، ص١٣؛ إيناس محمد البهيجي: تاريخ الدولة الفاطمية، مركز الكتاب الأكاديمي، ط.القاهرة ٢٠١٧م، ص٢٧.

(١١) عبيدالله المهدي: اختلفت المصادر حول نسبه، فالبعض ذهب إلى أن نسبه يصل إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، في حين ينكر آخرون نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب. ويُعد عبيد الله المهدي مؤسس الخلافة الفاطمية (العبيدية) بإفريقية (تونس)، وأول خليفة لها، وكان قد استولى على رقادة سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م ثم انتقل إلى المهدية، وبعد أن استتب له الأمر قام بالتخلص من أبي عبيد الله الشيعي وأخيه العباس، واللذين كانا لهما دور كبير في الدعوة لقيام دولة الفاطميين في المغرب؛ خوفًا من تزايد نفوذهما بين قبيلة كُتامَة. للمزيد أنظر: المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج١، ص٦٠ وما بعدها؛ أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، ص٤٨-٥٠.

(١٢) بعد مؤامرة أبو عبد الله ضد الفاطميين، لم يَعُد البربر هم العماد الأساسي للفاطميين، بل أحلّ الفاطميون محلهم عناصر أخرى كالسُلاف، والديلم، والأتراك، والزنوج، والأرمن. بالتفصيل أنظر: سيمينوفا ل. أ.: تاريخ مصر الفاطمية، ترجمة وتحقيق: حسن بيومي، المجلس الأعلى للثقافة، ط. القاهرة ٢٠٠١م، ص١٩٦-١٩٩.

(١٣) تاريخ مصر الفاطمية، ص٢٠٠.

(١٤) الخليفة المستنصر بالله: أبو تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن علي بن الحاكم بأمر الله. ولد في جمادى الأولى سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م بالقاهرة. تولى الخلافة في منتصف شعبان سنة ٤٢٧هـ وله من العمر سبع سنين. وظل بمنصب الخلافة حتى وفاته بذي الحجة سنة ٤٨٧هـ/ديسمبر ١٠٩٤م. أنظر: المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج٢، ص١٨٤؛ عبدالمنعم ماجد: الإمام المستنصر بالله الفاطمي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط.القاهرة ١٩٦١م، ص١٥-١٧.

(١٥) عن إزدياد نفوذ الأرمن في الجيش الفاطمي أنظر: السيد طه السيد: ازدياد نفوذ الآرمن في مصر في عهد الخليفة الفاطمي الحافظ (٥٢٥-٥٤٤هـ/١١٣٠-١١٤٩م)، ص ٥٨ وما بعدها.

(١٦) بدر الدين الجمالي: أبو النجم بدر بن عبد الله، مملوك أرمني الأصل، ولد سنة ٤٠٥هـ/١٠١٥م، وكان قد أُسِرَ في إحدى الغزوات وهو صغير فاشتراه جمال الدولة أبو الحسن علي بن عمار صاحب طرابلس الشام، ولذلك نُسب إليه، وحمل اسمه. دخل في خدمة الفاطميين، وتدرج في المناصب الكبرى، حتى وصل إلى منصب أمير الجيوش في الشام، ثم استدعاه الخليفة الفاطمي المستنصر بالله من الشام ليوليه الوزارة في عام ٤٦٦هـ/١٠٧٣م حتى يستعيد السيطرة على الأمور، وللخروج من الأزمات التي كادت تُودي بدولة المستنصر بالله، وظل بالوزارة حتى وفاته سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م. أنظر: المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢٧٦؛ هارون أحمد سليمان: الأسرة الجمالية ودورها في الدولة الفاطمية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب – جامعة اليرموك عام ٢٠٠٢م، ص٢١ وما بعدها؛ الصادق محمد الخوني: الوزير بدر الجمالي والدولة

الفاطمية، عدد (٦)، النشرة العلمية لكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، الجامعة التونسية، عام ١٩٨٣م، ص٣٥٨.

(١٧) وصل الأرمن إلى أعلى المناصب في الدولة المصرية في العهد الفاطمي ؛ إذ مُنحوا العديد من السلطات التشريعية، والتنفيذية المشمولة بالنفاذ في مختلف مجالات الدولة، وكانت هذه السلطات ما بين المطلقة وشبه المطلقة والمقيدة، وثمة عوامل أهّلت الأرمن لأن يكونوا أهل الحِّل والعقد، منها عظم شخصياتهم واتصافهم بالشدة والرهبة والسطوة والعزم والحزم، والقدرة على السيطرة على الأمور في الدولة، أضف إلى ذلك، تمكنهم من الخلفاء وهيبتهم في نفوس الناس، وارتباطهم بعجلة الحوادث الجارية في أنحاء البلاد وشهرة البعض منهم بالعدل والسماحة. وقد قُدِرَ لسبعة منهم أن يتولوا أهم منصب سياسي وهو الوزارة، وهم: بدر الجمالي، وابنه الأفضل بن بدر الجمالي، وأبو علي أحمد بن الأفضل، وأبو الفتح يانسي الأرمني، وبهرام الأرمني، وطلائع بن رُزيك، ورُزيك بن طلائع. للمزيد عنهم أنظر: سهام مصطفى أبو زيد: تاريخ الأرمن في مصر الإسلامية، ص١١٤-١٤٢؛ هارون أحمد سليمان: الأسرة الجمالية ودورها في الدولة الفاطمية، ص٢١ وما بعدها.

(١٨) الذهبي: العبر، ج٤، ص٣٠٥؛ تاريخ الإسلام، ج٤٢، ص٣٦٤. وأنظر: سير أعلام النبلاء، ج٢١، ص٣٨٥؛ اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج٣، ص٣٧٤؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢٨٣؛ أبو محمد الطيب بامخرمة: قلادة النحر، مج٤، ص٣٨٢؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٥٤٨.

(١٩) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية سيرة صلاح الدين، تحقيق: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، ط.٢، القاهرة ١٩٩٤م، ص٨١؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٩، ص٣٤٣-٣٤٤؛ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبدالقادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، ط.القاهرة ١٩٦٣م، ص١٥٦-١٥٧؛ أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٦٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص١٦٨-١٧١؛ أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، ص٢٣٣-٢٣٤.

(٢٠) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٨١.

(٢١) أَيْلة: العقبة حاليا، ميناء هام بالبحر الأحمر، يقع على بُعد ١٩٠ ميلا من السويس بطريق البحر، و١٥٠ ميلا بطريق البر، وبها كان يجتمع حجاج مصر والشام والمغرب، وقد اختلف المؤرخون والجغرافيون حول تفسير كلمة أيلة، فمنهم من ذكر أنها سُميت بذلك نسبة إلى الأدوميين الذين سكنوا جنوب الأردن قبل القرن ١٢ ق.م، وذكر آخرون أنها مُشتقة من (أيل) إله الأكاديين والكنعانيين والعبرانيين. أنظر: راغب حامد عبدالله البكر: الصليبيون والبحر الأحمر في العهد الأيوبي والمملوكي، العدد (٣٠)، آداب الرافدين، كلية الآداب-جامعة الموصل، عام ١٩٩٧م، ص١١٥؛ يوسف حسن غوانمة: أيلة (العقبة) والبحر الأحمر وأهميتها التاريخية والإستراتيجية، وزارة الثقافة الأردنية، ط.٢، عمان ٢٠١٦م، ص١٧-١٨ ؛ علي أحمد السيد: أصداء تاريخية لفتح صلاح الدين آيلة من الصليبيين ١١٧٠م/٥٦٦ه و ١١٨٣م/٥٧٩ه، المجلة العلمية لكلية السياحة والفنادق، ٢٠٢١م، ص ٤٢.

(٢٢) جزيرة فرعون: تقع في الجنوب الغربي من خليج العقبة (أيلة)، وتبعد عن خليج العقبة بحوالي ١٢كم، وحوالي ٨ كم جنوب شرق قرية طابا المصرية. وقد عُرفت تلك الجزيرة قديمًا بـــ "فارا"، وأطلق الرومان عليها "فاروس"، وهى كلمة رومانية تعني الفنار الذي كان يُستخدم قديمًا في هداية السفن المارة فى البحار ليلًا، غير أن تسميتها بجزيرة فرعون فيعود لاستخدام هذه الجزيرة للمرة الأولى في عهد الملك رمسيس الثاني. وقد أُستخدمت كموقع تجارى وميناء مهم للرومان على البحر الأحمر، كما استخدمها المسلمون كميناء تجاري مهم أيضًا، وخاصة في العصرين الفاطمي والأيوبي. وقد تم احتلال الجزيرة من قِبَلْ الصليبيين خلال عهد الملك بلدوين الأول، وتحديدًا سنة ٥١٠ه/١١١٦م، واستمرت تحت الحكم الصليبي حتى حرّرها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٥ه/١١٧٠م وأقام بها قلعة حصينة قُدِرَ لها حماية وتأمين مدن وموانئ البحر الأحمر. أنظر: يوسف حسن غوانمة: أيلة (العقبة) والبحر الأحمر، ص١٢٥؛ محمود أحمد درويش: التراث المعماري الفاطمي والأيوبي في مصر، معرض المؤلفين العرب، ط. القاهرة ٢٠١٩م، ص٢٦٤-٢٦٥.

(٢٣) يوسف حسن غوانمة: أيلة (العقبة) والبحر الأحمر، ص٥٠-٥١.

(٢٤) ابن مماتي: قوانين الدواوين، جمع وتحقيق: عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي، ط١. القاهرة ١٩٩١م،

ص٣٢٥؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٩، ص٣٦١؛ سعداوي: نظير حسان: التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي، مكتبة النهضة المصرية، ط. القاهرة ١٩٥٧م، ص٢٠-٢١؛ أحمد مختار العبادي و السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ط.بيروت ١٩٧٢م، ص٢٦٠؛ حسنين محمد ربيع: "البحر الأحمر في العصر الأيوبي"، ضمن أبحاث الأسبوع العلمي الثالث البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، سيمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث، جامعة عين شمس، ١٩٨٠م، ص١٠٧-١٠٧؛ يوسف حسن غوانمة: أيلة (العقبة) والبحر الأحمر، ص٥٠-٥١؛ علي أحمد السيد: أصداء تاريخية لفتح صلاح الدين آيلة، ص٤٣-٤٤.

(٢٥) عَيْذَاب: ميناء يقع على الشاطيء الغربي للبحر الأحمر، شمال قرية حلايب على بُعد ١٨ أو ٢٢ كم منها، وهي منطقة تمتعت بأهمية كبرى من خلال مرور حركة الحج الإسلامي إليها كمنطقة انطلاق إلى الحجاز في العصور الوسطى. أنظر: محمد مؤنس عوض: الرها- عيذاب- تونس، ص٢٤؛ عبدالغني عبدالعزيز زيادة: ميناء عيذاب في العصر الوسيط (٤٦٠-٦٦٦هـ/١٠٥٧-١٢٦٧م) دراسة في الجغرافية التاريخية، د.ن، القاهرة ٢٠١٤م، ص٣.

عن دور الأسطول المصري في حفظ ثغور الإسكندرية تنِّيس ورشيد وعيذاب أنظر: سعداوي: نظير حسان: التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي، ص٢٠-٢١؛ أحمد مختار العبادي و السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص٢٦٠؛ علي أحمد السيد: أصداء تاريخية لفتح صلاح الدين آيلة، ص٤٣-٤٤.

لم يكن اهتمام صلاح الدين بتلك الثغور راجعًا إلى أهميتها التجارية فحسب، بل لأهميتها العسكرية الاستراتيجية، ولاسيما الثلاث الأولى منها. تلك الأهمية الملحوظة منذ أيام الفاطميين وتخصيصهم ديوانًا للنظر في شئونها، عُرف بديوان الثغور. أنظر: نظير حسان سعداوي: التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي، مكتبة النهضة المصرية، ط.القاهرة ١٩٥٧م، ص٢١؛ راغب حامد عبداللة البكر: الصليبيون والبحر الأحمر في العهد الأيوبي والمملوكي، ص١١٥.

(٢٦) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج١، ص٢٥٤؛ نظير حسان سعداوي، جيش مصر في أيام صلاح الدين، مكتبة النهضة المصرية، ط.القاهرة ١٩٥٦م، ص٧.

عن اسقاط صلاح الدين للخلافة الفاطمية. أنظر: ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٨٦؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٩، ص٣٦٤-٣٦٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٢٠٠-٢٠٢؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: محمد حلمي محمد، ط. القاهرة ١٩٩٦م، ج٣، ص٣٢٤-٣٢٨؛ أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، ص٢٣٩-٢٤١.

(٢٧) اليافعي: مرآة الجنان، ج٣، ص٣٧٤؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٢، ص٣٦٤؛ ص الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢١، ص٣٨٥؛ أبو محمد الطيب بامخرمة: قلادة النحر، مج٤، ص٣٨٢.

(٢٨) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٦١٤-٦١٥؛ رفيق المهايني: الأسطول العربي منذ فجر الإسلام حتى آواخر عهد المماليك، رسالة دكتوارة غير منشورة، كلية العلوم والآداب- جامعة بيروت عام ١٩٤٢م، ص٢٢٠؛ سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، دار الكاتب العربي، ط.القاهرة ١٩٦٧م، ص١٠١؛ نوال عبدالله الشريف: الأسطول في العصر الفاطمي، العدد (٣٥)، مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة، ص٢٣٧٤-٢٣٧٥؛ وفيق بركات: الأسطول البحري في الفكر العسكري للناصر صلاح الدين الأيوبي، مج٩، عدد(٣٥-٣٦)، مجلة التراث العربي، سوريا، يوليو ١٩٨٩م، ص١١٨-١١٩.

(٢٩) شاور: أبو شجاع مجير الدين السعدي، تولى الوزارة للخليفة العاضد، ولُقب بالملك المنصور، ثم دخل في نزاع على الوزارة مع منافسه ضرغام، واستعان كلا منهم بحليف خارجي، فاستعان شاور بنور الدين محمود، واستعان ضرغام بملك بيت المقدس عموري الأول، وانتهى النزاع بمقتل ضرغام، وانفراد شاور بالوزارة، ثم ما لبث أن دخل في نزاع مع نور الدن محمود انتهى بمقتل شاور سنة ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م. أنظر: محمد مؤنس أحمد عوض: معجم أعلام عصر الحروب الصليبية قي الشرق والغرب (القرنان ١٢ ،١٣م)، مكتبة الآداب، ط.١، القاهرة ٢٠١٥م، ص٧٨.

عن حرق شاور للفسطاط أنظر: أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص١٠٥؛ أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، ص٢٣٠-٢٣١.

(٣٠) عموري الأول: الابن الثاني للملك فولك الأنجوي, ولد بمملكة بيت المقدس عام ١١٣٥م/٥٢٩-٥٣٠هـ، حكم كونتية يافا وعسقلان عام ١١٤٥م فى عهد أخيه الأكبر الملك بلدوين الثالث, وبعد وفاة أخيه الملك عام ١١٦٣م ، تم تتويجه خليفة له ليستمر في حكم المملكة حتى وفاته عام ١١٧٤م. عنه بالتفصيل أنظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية, ج٤, ص١٦-١٨؛ حجازي عبد المنعم سليمان: السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس عهد الملك عموري الأول (١١٦٣-١١٧٤م/٥٥٨-٥٦٩ه), دار الآفاق العربية, ط.القاهرة ٢٠١٤م؛ ص١١٦ وما بعدها.

(٣١) سعداوي: التاريخ الحربي، ص٢٤.

(٣٢) الحبس الجيوشي: قرى وضياع بالبرّين الشرقي والغربي لمصر أوقفها أمير الجيوش بدر الجمالي لتكون خراجها للجيش، أما نواحي البر الشرقي فشملت: بهيت، والأميرية، والمنية, بينما شملت نواحي البر الغربي جهة الجيزة: سَفط، ونَهيا، ووسيم. أنظر: ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص٣٣٦-٣٣٩؛ أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، ص٣٦٠-٣٦١.

(٣٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٧٣؛ المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٦١٤-٦١٥؛ أحمد مختار العبادي والسيد عبدالعزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص٢٠٢.

(٣٤) المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٤٥؛ أحمد مختار العبادي والسيد عبدالعزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص٢٠٢-٢٠٣.

(٣٥) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢٨٣؛ سعداوي: التاريخ الحربي، ص٢٥-٢٦.

تعود أهمية الأسطول العربي في العصور الوسطى في تأثيرة على البحرية الأجنبية، فكلمة Amirale الفرنسية، و Admiral الإنجليزية، و Aumiragllo الإيطالية، و Almirag الأسبانية أُخذت من المصطلح العربي "أمير البحر"، فالعرب لهم الفضل في الأسبقية في إيجاد هذا الإصطلاح وغيره من المصطلحات البحرية. أنظر: رفيق المهايني: الأسطول العربي منذ عصر الإسلام حتى أواخر عهد المماليك، ص١٤٩.

(٣٦) إبراهيم أحمد العدوي: الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ط. القاهرة ١٩٥٧م، ص١٥٨.

ثمة وثيقة تعود لأواخر العصر الفاطمي في صورة رسالة بعث بها أحد الخلفاء الفاطميين إلى أمير البحر تكشف عن سلطته واختصاصاته ومهامه، وقد شملت على حق أمير البحار في اختيار رجال الأسطول ومعاملتهم، والإشراف على بناء السفن ومراسيها، ومسئوليتهم عن قلم المخابرات البحرية التابع لهم. أنظر: إبراهيم أحمد العدوي: الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط، ص١٥٨-١٦١.

(٣٧) أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٤٤٩؛ أحمد مختار العبادي والسيد عبدالعزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص٢٠٢.

(٣٨) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ص٢٧، ٣٥-٣٦؛ سيد علي الحريري: الأخبار السنية في الحروب الصليبية، مطبة النيل بمصر، ط.٢، القاهرة ١٣٢٩ه، ص ١٨٥؛ سعاد ماهر: البحرية المصرية في مصر الإسلامية، ص١٠٣.

(٣٩) أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص١٣؛ سعاد ماهر: البحرية المصرية في مصر الإسلامية، ص١٠٣.

(٤٠) الحريري: الأخبار السنية، ص ١٨٧-١٨٨؛ سعاد ماهر: البحرية المصرية في مصر الإسلامية، ص١٠٣.

(٤١) بلدوين الرابع: ابن الملك عموري الأول من زوجته آجنيس كورتيناي، ولد في صيف عام ١١٦١م، وقد تولى الحكم خلفًا لأبيه الراحل سنة ١١٧٤م، وظل ملكًا لبيت المقدس حتى وفاته سنة ١١٨٥م. للمزيد عنه أنظر: ياسر كامل محمود: مملكة بيت المقدس في عهد الملك بلدوين الرابع (١١٧٤-١١٨٥م)، نور حوران، ط. دمشق ٢٠١٩م، ص١٤٠-١٤١.

(٤٢) طرسوس: من مدن آسيا الصغرى، تقع على ساحل البحر المتوسط إلى الشمال الغربي من أنطاكية، حيث تقع بين أنطاكية وحلب والدولة البيزنطية. وقد أطلق عليها المؤرخون والجغرافيون العرب المسلمون

تسميات منها (الدرب) أي المضيق الذي تحيطه الجبال لوجود جبال طوروس، دخلت تحكم الحكم الإسلامي منذ العصر العباسي، ودخلت في حوذة الصليبيين بعد استيلاء تانكرد عليها سنة ١١٠٩م/٥٠٣ه. أنظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج٤، ص٢٨؛ جميل عبدالله محمد المصري: طرسوس صفحة من جهاد المسلمين في الثغور، العدد (٧٧)، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، جمادى الأخرة ١٤٠٨ه/١٩٨٨م، ص١٠٤؛ سناء عبدالله عزيز الطائي: مدينة طرسوس ودورها في التاريخ العربي الإسلامي (١٧٢-٣٥٤ه/٧٨٨-٩٦٥م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية –جامعة الموصل عام ٢٠٠٢م، ص١٧-١٨. وعن سقوطها في يد الصليبيين أنظر: ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص١٦٧.

(٤٣) ريموند الثالث: هو ابن ريموند الثاني كونت طرابلس, وابن " هيديرنا " Hederna ابنة بلدوين الثاني, ثاني ملوك مملكة بيت المقدس, تولى ريموند حكم كونتية طرابلس سنة ١١٥٢م/٥٤٧ه وحتى وفاته سنة ١١٨٧م/٥٨٣ه. عنه بالتفصيل أنظر : وليم الصوري : الحروب الصليبية, ج٤, ص١٨١-١٨٢. وأنظر أيضًا:

Baldwin , Raymond III of Tripolis and the fall of Jerusalem , (Amsterdam: Adolf M. Hakkert Publisher, 1969) , pp. 7-9 .

(٤٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٢٥٦-٢٥٧؛ أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص١٣؛ سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية ، ص١٠٤

(٤٥) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ص٢٨٢-٢٨٣، ٢٩٣-٢٩٥ ؛ ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٤٦١؛ التاريخ الباهر، ص١٨٢؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٠١ ؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص٩٩.

وأنظر أيضًا: الحريري: الأخبار السنية، ص١٩٣؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط.٩، القاهرة ٢٠١٠م، ج٢، ص٦١؛ سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ص١٠٤.

(٤٦) الْحَوْرَاء: ميناء يقع جنوب مصر بينها وبين بلاد الحجاز، وقِيل إنها مرفأ سفن مصر إلى المدينة المنورة. أنظر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، ط.بيروت د.ت، ج٢، ص٣١٦.

(٤٧) رينو دي شاتيون: فارس صليبي فرنسي من مقاطعة شاتيون Chatillon الواقعة شرق فرنسا، ارتحل إلى الشرق الإسلامي بدافع الطمع والمغامرة, برز اسمه بعد أحداث الصليبية الثانية. تزوج عام ١١٥٣م/٥٤٨ ه من الأميرة كونستانس Constanc ابنة الملك بلدوين الثاني, والوصية على عرش ابنها الصغير بوهيمند الثالث؛ ليصبح بفضل تلك الزيجة الحاكم الفعلي لإمارة أنطاكية, وبسبب اغاراته على بعض القوى الإسلامية المجاورة, وقع أسيرًا في أيدي بعض جنود حلب عام ١١٦٠م/٥٥٥ه, وأمضى في هذا الأسر مدة قاربت الستة عشر عامًا, وبعد اطلاق سراحه تزوج مرة أخرى من ستيفانى دي ميللى _أرملة ميلون دي بلانسي عام ١١٧٧م/٥٧٢ه، وبفضل تلك الزيجة أُسندت إليه إدارة إمارة الشوبك والكرك الواقعتين على طريق القوافل المتجهة من مصر إلى بلاد الحجاز. وقد أطلقت عليه المصادر العربية اسم "أرناط"، بينما أطلقت عليه بعض المراجع الأجنبية مُسمى "الفارس اللص". أنظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية, ج٤, ص؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص١٣٢ ؛ وللمزيد راجع أيضًا :

Schlumberger Gustave , Renaud de Chatillon, Prince d' Antioche , Seigneur de la Terre d'outre-Jourdain, Librairie Plon, (Paris, 1898) , pp.1-13.

(٤٨) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٤٦٨؛ البنداري: سنا البرق الشامي، ص٢١٢؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص١٣٣ ؛ ابن جبير، رحلته، ص٣٤-٣٥ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٣١٢؛ المقريزي المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٧٩؛ المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢٨٤؛ مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، ج١، ص٣١٦-٣١٧.

وأنظر أيضًا: عاشور: الحركة الصليبية،ج٢،ص٧١؛ سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ص١٠٥؛ أحمد مختار العبادي: "البحرية المصرية زمن الأيوبيين والمماليك"، ص٥٦٨؛ عمر يحي محمد: مغامرة الصليبي أرناط الفاشلة لغزو الحجاز ٥٧٨ه/١١٨٢م، د.ن، د.ت، ص١٩- ٢٠؛

(٤٩) Le Chronique d'Ernoul et de Bernard le Tresorier, (ed.) Mas Latrie, (Paris, 1871), pp. 69-70.

(٥٠) Schlumberger , Renaud de Chatillon, Prince d' Antioche, p.255-256.

(٥١) Leiser, Gery La Viere "The Crusader Raid in The Red Sea in (1182 – 1183)", in J.A.R.C.E.,.XIV, 1977,p. 87.

(٥٢) Hamilton B.,The Leper King and His Heirs, (London: Cambridge University Press, 2000), p.181.

(٥٣) محمد مؤنس عوض: (الرها- عيذاب- تونس) أقصى حدود التوسعات الصليبية خلال المرحلة ما بين عامي ١٠٩٧-١٢٩١م، العدد (٣٠)، ج١، مجلة بحوث الشرق الأوسط، كلية الآداب – جامعة عين شمس، عام ٢٠١٢م، ص٢٥-٢٦.

(٥٤) Hamilton B.,The Leper King and His Heirs, pp.178-179.

(٥٥) كان رينو دي شاتيون (أرناط) قد حاول الإغارة على بلاد الحجاز سنة ١١٨١م/٥٧٧هـ، أملًا في الاستيلاء على طريق التجارة والحج، فهاجم عدة قوافل إسلامية، ولم ينهي غارته إلا بعد أن هدده صاحب دمشق عزالدين فرّخشاه ابن أخي صلاح الدين بحصار قلعة الكرك. الأمر الذي اضطر أرناط للعودة سريعًا لقلعته للزود عنها. للمزيد عن تلك الغارة أنظر: عمر يحي: مغامرة أرناط الفاشلة، ص١٩-٢١؛ عبدالله بن عبدالرحمن الربيعي: السياسة الصليبية تجاه البحر الأحمر (٤٩٢-٥٨٤هـ/١٠٩٩-١١٨٨م)، العدد (٣)، مجلة الدارة، دارة الملك عبدالعزيز, الرياض ١٤٢٤هـ، ص١٠٦-١٠٧؛ راغب حامد عبداللة البكر: الصليبيون والبحر الأحمر في العهد الأيوبي والمملوكي، ص١١٧. وأنظر أيضًا:
Schlumberger , Renaud de Chatillon, Prince d' Antioche, p.243-248; Gary la Viere Leiser,"The Crusader Raid in The Red Sea, p. 87-88.

(٥٦) The Crusader Raid in The Red Sea, p.94.

(٥٧) الغربان: مفردها غراب، وهي مراكب حربية شديدة البأس، استعملها المسلمون والصليبيون في حروبهم البحرية إبان العصور الوسطى، وقيل أنها سُميت بالغربان، لأنها كانت تُبنى على شكل غراب، وهي مراكب تسير بالقلوع والمجاديف، وكانت السفينة الواحدة تحمل ما يقرب من مائتي مقاتل. أنظر: درويش النخيلي: السفن الإسلامية على حروف المعجم، ط. الإسكندرية ١٩٧٤م، ص١٠٤-١٠٦.

(٥٨) Ernoul, Le Chronique d'Ernoul, pp. 69-70.
وأنظر: البنداري: سنا البرق الشامي، ص٢١٢؛ ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٤٦٨؛ ابن جبير: رحلته، ص٣٤؛ المقريزي السلوك ج١، ص٧٩ ؛ الحريري: الأخبار السنية، ص ١٩٣-١٩٤؛ عاشور: الحركة الصليبية،ج٢، ص٧٠؛ عمر يحي: مغامرة أرناط الفاشلة، ص١٩-٢٠؛ راغب حامد عبداللة: الصليبيون والبحر الأحمر في العهد الأيوبي والمملوكي، ص١١٨؛ محمد مؤنس عوض: الرها-عيذاب-تونس، ص٢٦؛ مزا بنت زيد البقمي: الأدلاء ودورهم في بلاد الشام ومصر زمن الحروب الصليبية (٤٩٠-٦٩٠هـ/١٠٩٧-١٢٩١م)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط.١، القاهرة ٢٠١٧م، ص١٤٢.

(٥٩) Gary la Viere Leiser, The Crusader Raid in The Red Sea, p.89.

(٦٠) عائشة عبدالله عمر باقاسي: بلاد الحجاز في العصر الأيوبي (٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية –جامعة الملك عبدالعزيز عام ١٩٨٠م، ص٤٨-٤٩؛ عمر يحي: مغامرة أرناط الفاشلة، ص٢٢؛ راغب حامد عبداللة: الصليبيون والبحر الأحمر في العهد الأيوبي والمملوكي، ص١١٨؛ عبدالله بن عبدالرحمن الربيعي: السياسة الصليبية تجاه البحر الأحمر، ص١٠٩.

(٦١) البنداري: سنا البرق الشامي، ص٢١٣؛ ابن جبير: رحلته، ص٣٤. وأنظر أيضًا: ابن الوردي: تاريخه، ج٢، ص١٣١؛ يوسف حسن غوانمة: أيلة (العقبة) والبحر الأحمر، ص٦٢-٦٣.

(٦٢) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٤٦٨؛ المقريزي السلوك ج١، ص٧٩ ؛ الحريري: الأخبار السنية، ص ١٩٣-١٩٤؛ عاشور: الحركة الصليبية،ج٢، ص٧٠؛ عمر يحي: مغامرة أرناط الفاشلة، ص١٩-٢٠؛ عوض، محمد مؤنس: الرها-عيذاب-تونس، ص٢٦؛ علي أحمد السيد: أصداء تاريخية لفتح صلاح الدين آيلة، ص٤٥.

(٦٣) Schlumberger , Renaud de Chatillon, Prince d' Antioche, p.264.

(٦٤) أبو شـــامة: الروضـــتين، ج٣، ص١٣٧؛ ابن جبير، رحلته، ص٣٤؛ المقريزي: الســـلوك، ج١، ق١، ص٧٩.
(٦٥) عائشـــة عبدالله عمر: بلاد الحجاز في العصـــر الأيوبي، ص٤٩-٥٠؛ عوض، محمد مؤنس: الرها- عيذاب- تونس، ص٢٤؛ مزا بنت زيد البقمي: الأدلاء ودورهم في بلاد الشام ومصر زمن الحروب الصليبية، ص١٤٣.
(٦٦) وليم الصـــوري: الحروب الصـــليبية، ج٤، ص٦٩؛ عوض، محمد مؤنس: الرها- عيذاب- تونس، ص٢٤؛ الربيعي: السياسة الصلبيية تجاه البحر الأحمر، ص٩٨.
(٦٧) الربيعي: الســياســة الصــلبيية تجاه البحر الأحمر، ص٩٤. وراجع أيضًــا: عبدالغني عبدالعزيز زيادة: ميناء عيذاب في العصر الوسيط، ص١٤.
(٦٨) البنداري: سنا البرق الشامي، ص٢١٣؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص١٣٣؛ علي أحمد السيد: أصداء تاريخية لفتح صلاح الدين آيلة، ص٤٥.
(٦٩) القاضي عماد الدين الأصفهاني: البستان الجامع، ص٤١٧؛ المقريزي السلوك ج١، ق١، ص٧٩؛ عمر يحي: مغامرة أرناط الفاشلة، ص٢٠.
(٧٠) رحلة ابن جبير، ص٣٥.
نفى عمر يحي أن يكون رينو دي شـاتيون قد اقترب من المدينة المنورة مسـيرة يوم واحد، واعتبر ذلك مجرد مبالغة وتهويل من قِبَل المؤرخين المسلمين. أنظر: مغامرة أرناط الفاشلة، ص٣٠.
(٧١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٢، ص٣٦٤؛ مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، ج١، ص٣١٧؛ عاشور: الحركة الصليبية،ج٢، ص٧٠.
(٧٢) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص١٣٧، ١٣٩.
(٧٣) قدرت إحدى الباحثات عدد البدو الذين انضـموا لخدمة أرناط بعشـرة أفراد. أنظر: مزا بنت زيد البقمي: الأدلاء ودورهم في بلاد الشام ومصر زمن الحروب الصليبية، ص١٤٣-١٤٤.
(٧٤) عمر يحي: مغامرة أرناط الفاشـــلة، ص٢٣-٢٤؛ محمد مؤنس عوض: الرها- عيذاب- تونس، ص٢٦؛ علي أحمد السيد: أصداء تاريخية لفتح صلاح الدين آيلة، ص٤٥.
(٧٥) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص١٤٠.
(٧٦) البنداري: سـنا البرق الشـامي، ص٢١٣؛ القاضـي عماد الدين الأصـفهاني: البسـتان الجامع، ص٤١٧؛ ابن الأثير: الكـامـل، ج٩، ص٤٦٨؛ ابن الوردي: تـاريخـه، ج٢، ص١٣١-١٣٢؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢٨٤؛ مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، ج١، ص٣١٧؛ عائشـــة عبدالله عمر: بلاد الحجاز في العصـر الأيوبي، ص٥١؛ سـتيفن رانسـيمان: تاريخ الحروب الصـليبية، ٣ أجزاء، ترجمة السـيد البـاز العريني، ط. ٣، القـاهرة ١٩٩٣م، ج٢، ص٧٠٧؛ أحمد مختـار العبـادي: "البحريـة المصـــريـة زمن الأيوبيين والمماليك"، ص٥٦٨. وأنظر:
Schlumberger , Renaud de Chatillon, Prince d' Antioche, p.272-273.
ذكر الذهبي أن صلاح الدين أرسل إلى سيف الدّولة بن مُنقذ نائبه بمصر أن جَهّز لؤلؤ الحاجب، فكلّمه في ذلك فقال: حسبك، كم عددهم؟، قال: ثلاثمائة ونيّف كلّهم أبطال، فأخذ قيودًا بعددهم. أنظر: تاريخ الإسلام، ج٤٢، ص٣٦٤-٣٦٥.
(٧٧) البنداري: سنا البرق الشامي، ص٢١٣؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص١٤٠.
(٧٨) السلوك، ج١، ق١، ص٧٩ ؛ وأنظر أيضًا: المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢٨٣.
(٧٩) عمر يحي: مغامرة أرناط الفاشلة، ص٢٦-٢٧.
(٨٠) عمر يحي: مغامرة أرناط الفاشـــلة، ص٢٦-٢٧؛ الربيعي: الســـياســـة الصـــلبيية تجاه البحر الأحمر، ص١١٠.
(٨١) سنا البرق الشامي، ص٢١٣؛ الروضتين، ج٣، ص١٣٤؛ مفرج الكروب، ج٢، ص١٢٨.
(٨٢) رحلة ابن جبير، ص٣٥؛ تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص١٣٢.
(٨٣) سـنا البرق الشـامي، ص٢١٣؛ عمر يحي: مغامرة أرناط الفاشـلة، ص٢٧؛ علي أحمد السـيد: أصـداء تاريخية لفتح صلاح الدين آيلة، ص٥٥.

(٨٤) عمر يحي: مغامرة أرناط الفاشلة، ص٢٧؛ علي أحمد السيد: أصداء تاريخية لفتح صلاح الدين آيلة، ص٥٥.
(٨٥) القاضي عماد الدين الأصفهاني: البستان الجامع، ص٤١٧؛ عائشة عبدالله عمر: بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، ص٥١؛ رانسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٧٠٧؛ يوسف حسن غوانمة: أيلة (العقبة) والبحر الأحمر، ص٦٤.
(٨٦) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٤٦٨؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص١٣٣؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٧٩؛ مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، ج١، ص٣١٦؛ عاشور: الحركة الصليبية،ج٢، ص٧١؛ يوسف حسن غوانمة: أيلة (العقبة) والبحر الأحمر، ص٦٤-٦٥.
وأنظر:
Schlumberger , Renaud de Chatillon, Prince d' Antioche, p.278-280; Leiser, Gery La Viere "The Crusader Raid in The Red Sea, p.92.
(٨٧) سنا البرق الشامي، ص٢١٣؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص١٣٣؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٧٩؛ مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، ج١، ص٣١٧؛ يوسف حسن غوانمة: أيلة (العقبة) والبحر الأحمر، ص٦٤-٦٥؛ مزا بنت زيد البقمي: الأدلاء ودورهم في بلاد الشام ومصر زمن الحروب الصليبية، ص١٤٥.
وأنظر:
Schlumberger , Renaud de Chatillon, Prince d' Antioche, p.278-280; Leiser, Gery La Viere "The Crusader Raid in The Red Sea, p.92.
(٨٨) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج٢١، ص٨٥ ؛ ابن الوردي: تاريخه، ج٢، ص١٣٢.
(٨٩) رحلة ابن جبير، ص٣٤-٣٥؛ عاشور: الحركة الصليبية،ج٢، ص٧١.
وصف لنا الرحالة ابن جبير تفاصيل ما حدث، فذكر أنه أثناء وجوده بالإسكندرية، رأى مجموعة من أسرى الإفرنج، راكبين على الجمال ووجوهم إلى أذنابها، وحولهم الطبول والأبواق، فلما سأل عن خبرهم، أُخبر أن هؤلاء مجموعة من الفرسان الإفرنج حاولوا غزو بلاد الحرمين، ونبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، فخرج لهم حسام الدين لؤلؤ فقتل بعضًا منهم، وأسر البعض الآخر. أنظر: رحلة ابن جبير، ص٣٤.
(٩٠) عاشور: الحركة الصليبية،ج٢، ص٧١.
(٩١) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص١٣٣.
(٩٢) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص١٣٤.
(٩٣) أبو شامة: الروضتين، ج٣،ص١٣٥.
(٩٤) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص١٣٦.
(٩٥) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص١٣٦.
(٩٦) الشوقيات: مؤسسة هنداوي،٢٠٢٠م، ص٢٧٤.
(٩٧) الحسيني معدي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٠٢.
(٩٨) رفيق المهايني: الأسطول العربي منذ عصر الإسلام حتى أواخر عهد المماليك، ص٢٢١؛ الحسيني الحسيني معدي: صلاح الدين الأيوبي بطل الشرق وأسطورت الغرب، كنوز للنشر والتوزيع، ط١. القاهرة ٢٠١٣م، ص١٠٩.
(٩٩) البنداري: سنا البرق الشامي، ص٣٠٩؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣٣؛ المقريزي: السلوك، ج١، ص٢١٠.
(١٠٠) السلوك، ج١، ق١، ص٢٠٧ -٢٠٨.
(١٠١) للمزيد عن سقوط مدن الساحل الشامي في يد المسلمين أنظر: العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص٤٨-٦٢؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٣١-١٣٤؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٧-٣٣؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٩١-٩٦.
(١٠٢) البنداري: سنا البرق الشامي، ص٣٠٩؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣٣.
(١٠٣) الفتح القسي، ص٦٦.

(١٠٤) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٣٧-١٣٨.
(١٠٥) سعيد عبدالفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٩.
(١٠٦) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٠٩-٢١٠؛ أبو شامة: الروضتين ج٤، ص٥٤؛ المقريزي: السلوك، ج١، ٢١٥- ٢١٦.
(١٠٧) الأصفهاني: الفتح القسي، ص١٨٤ -١٨٥.
(١٠٨) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢١٠؛ المقريزي: السلوك، ج١، ٢١٥- ٢١٦.
(١٠٩) المقفى الكبير، تحقيق: محمد العيلاوي، دار الغرب الإسلامي، ط.١، بيروت ١٩٩١م، ج٤، ص٥٩٦.
(١١٠) هو صفي الدين أبو محمد بن القاضي أبي الحسن الشيبي الدميري المالكي، المعروف بابن شكر. وابن شكر إنما هو زوج أمّه القاضي الأعز أبو الفوارس مقدام بن أحمد بن شكر، وقد نُسِبَ إليه لأنه ربّاه صغيرًا، فعُرِف به، ولد بالدميرة بين مصر والإسكندرية في سنة ٥٤٠ه، ونظرًا لما تمتع به صفي الدين من النباهة قلّده العادل الأيوبي رئاسة الأسطول المصري سنة ٥٨٧ه/١١٩١م/ وتوفى بمصر ودُفن بالقاهرة سنة ٦٢٢ه. أنظر أبو شامة: الذّيل على الروضتين، دار الجيل، ط.بيروت ١٩٧٤م، ص١٤٧؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج٤، ص٥٩٥-٥٩٦.
(١١١) اليافعي: مرآة الجنان، ج٣، ص٣٧٤؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢٨٣
(١١٢) سير أعلام النبلاء، ج٢١، ص٣٨٤-٣٨٥.
(١١٣) الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣٣.
(١١٤) الفتح القسي، ص١٨٤.
(١١٥) الروضتين، ج٣، ص١٣٣؛ وأنظر أيضًا: المصدر نفسه، ج٤، ص٤٦٦.
(١١٦) سنا البرق الشامي، ص٢١٣.
(١١٧) المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢٨٣.
(١١٨) عقد الجمان، ج٣، ص١٢٠-١٢١.
(١١٩) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص١٣٦-١٣٧.
(١٢٠) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج٢٢، ص٨٧.
(١٢١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان،ج٢٢، ص٨٧؛ أبوشامة: الروضتين،ج٤، ص٤٦٦؛ العيني: عقد الجمان، ج٣، ص١٢١.
(١٢٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٨٧؛ أبوشامة: الروضتين،ج٤، ص٤٦٦.
(١٢٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان،ج٢٢، ص٨٧؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢٨٣؛ اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج٣، ص٣٧٤.
(١٢٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢٨٣؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٢، ص٣٦٤.
(١٢٥) رزق الله أيوب إبراهيم: التاريخ الفاطمي الاجتماعي، الشركة العالمية للكتاب، ط.١، بيروت ١٩٩٧م، ص٢٠٨.
(١٢٦) المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٤٥؛ أحمد مختار العبادي والسيد عبدالعزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص٢٠٢-٢٠٣.
(١٢٧) الأصفهاني: الفتح القسي، ص١٨٤ -١٨٥.
(١٢٨) أبو شامة: الروضتين: ج٣، ١٣٣.
(١٢٩) القرافة: مجموعة من المقابر بناها المصريون لدفن مواتاهم، وهي تنقسم إلى قسمين، القرافة الصغرى، وقد بُنيت تحت سفح جبل المُقطَّم بالقاهرة، وما بُني شرق هذا الموضع عُرف بالقرافة الكبرى. وقد سُميت بذلك نسبة قبيلة من المغافر يُقال لهم بنو قرافة. أنظر: أميرة الشيخ رضا فرحات: الفاطميون تاريخهم وآثارهم في مصر، كتاب –ناشرون، ط.بيروت د.ت، ص٢٥٩.
(١٣٠) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج٩، ص١٤٣؛ المواعظ والاعتبار، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط.لندن ٢٠٠٣م، ج٤، ص٨٩١.
(١٣١) المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢٨٣.
(١٣٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص ٢٦٤؛ المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢٨٥.

(١٣٣) المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢٨٥.
(١٣٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٨٧؛ المنذري: التكملة لوفيات النقلة، ج١، ص٤١٧؛ أبو شامة: الروضتين،ج٤، ص٤٦٦؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٢، ص٣٦٣-٣٦٤؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج٣، ص٣٧٤؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج٤، ج٢، ص٢٤٥؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢٨٥.
(١٣٥) مرآة الزمان، ج٢٢، ص٨٧؛ عقد الجمان، ج٣، ص١٢١.
(١٣٦) الروضتين،ج٤، ص٤٦٦.
(١٣٧) المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢٨٥.
(١٣٨) الذهبي: العبر، ج٤، ص٣٠٤-٣٠٥؛ تاريخ الإسلام، ج٤٢، ص٣٦٣-٣٦٥. وأنظر: سير أعلام النبلاء، ج٢١، ص٣٨٥؛ اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج٣، ص٣٧٤؛ أبو محمد الطيب بامخرمة: قلادة النحر، مج٤، ص٣٨٢. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٤، ص٣٣٦.
(١٣٩) تاريخ ابن الفرات، مج٤، ج٢، ص٢٤٥؛ التكملة لوفيات النقلة، ج١، ص٤١٧.
(١٤٠) أبوشامة: الروضتين،ج٤، ص٤٦٦؛ مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج٣، ص٣٧٤.
(١٤١) عن المجاعة التي تعرضت لها مصر يُحدد سبط بن الجوزي، وابن الفرات، والمقريزي، وأبو المحاسن بن تغري بردي، وابن أيبك الدواداري بدايتها في مصر بسنة ٥٩٦هـ، وذروتها بسنة ٥٩٧هـ، ونهايتها بسنة ٥٩٨هـ. أنظر: مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٤٧٧-٤٧٨؛ تاريخ ابن الفرات، ج٤، ق٢، ص٢١٧؛ إغاثة الأمة بكشف الغمة، دراسة وتحقيق: كرم حلمي فرحات، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط.١، القاهرة ٢٠٠٧م، ص١٠٣-١٠٤. وراجع أيضًا السلوك، ج١، ق١، ص١٥٦-١٥٨؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٦٣م، ج٦، ص١٥٩-١٧٤ ؛ الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ص١٤٩.
بينما يحدد كل من: عبداللطيف البغدادي، وابن الأثير، وابن واصل، والذهبي بدايتها في مصر بسنة ٥٩٧هـ، ونهايتها بسنة ٥٩٨هـ. راجع: الافادة والاعتبار، ص١٣٢-١٥٢؛ الكامل، ج١٠، ص١٨١؛ مفرج الكروب، ج٣، ص١٢٧؛ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط.١، بيروت ١٩٩٧م، ج٤٢، ص٣١-٣٦. واتفق معهم في ذلك الباحث الديب عطية عثمان. أنظر: المجاعة في مصر في العصر الأيوبي كما صورها الرحالة عبداللطيف البغدادي، عدد (٣٨)، ج٤، مجلة كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر بأسيوط، ٢٠١٩م، ص٣٧٨٠ وما بعدها.
في حين أشار المؤرخ أبو شامة إلى أن المجاعة بدأت بمصر سنة ٥٩١هـ, وانتهت سنة ٥٩٥هـ !؛ ولكن لا توجد دلائل مصدرية تؤكد ذلك. أنظر: الروضتين، ج٤، ص٤٦٦.